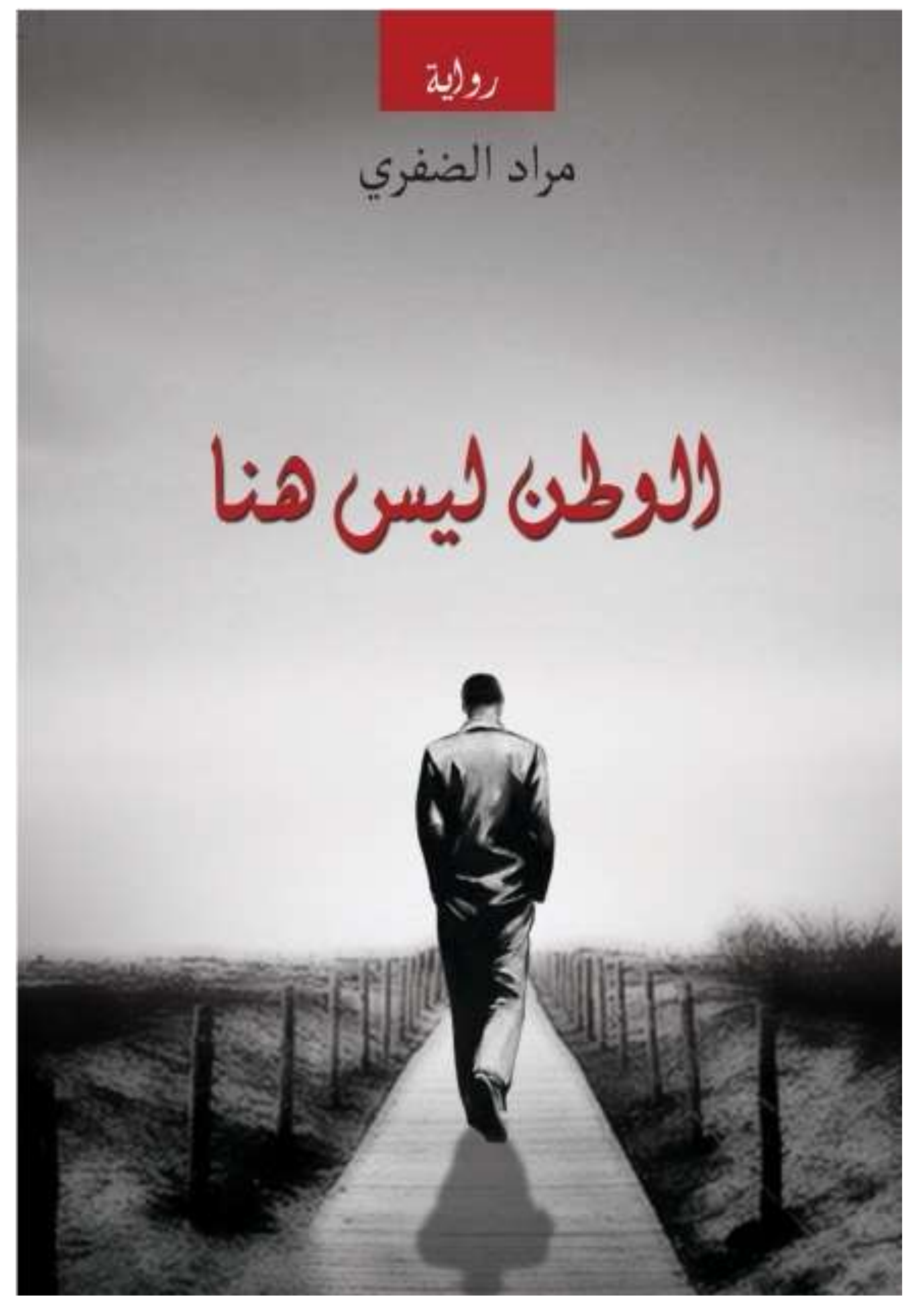

رواية
مراد الضفري
الوطن ليس هنا



مراد الضفري

كاتب وشاعر مغربي

للتواصل مع الكاتب : facebook.com/mourad.eddafri ;mourad.courriel@gmail.com

الوطن ليس هنا

- ما ذنبي إن كنتُ إسرائيلية وأحبك يا طارق ؟ هل نملك أن ننتقي مسبقاً من نحب ؟ ، هل أملكُ أن أشترط جنسية الرجل وديانته قبل أن أحبه؟. أنا لا أفهمكم أنتم العرب ، تقتلون الحب بكل برود بسبب السياسة والعروبة والمبادئ القومية وكأن الحب آخر اهتماماتكم في اللائحة !

- ما يفرقنا يا "أماليا" أكبر مما يجمعنا .. التاريخ والهوية والمبادئ وكل الأشياء التي ننتمي لها تفرقنا ولا تسمح لنا حتى بهذه اللحظات المسروقة من تاريخ أهلنا. بين أهلي وأهلك قصص مكتوبة من الرصاص والمجازر واحتلال وطن.
لا يمكنني أن أمارس معكِ الحب يا "أماليا" وأهلكِ يمارسون القتل ومصادرة أحلام شعبي. سيلُ القبلات ولحظات العشق الجميل التي منحتني إياها لا يمكن أن تمحي من ذاكرتي أصوات دبابات الميركافا وطائرات الأباتشي وأضواء الفوسفور الأبيض الذي أحرق شعبي ،لا يمكنني وأنا أتلذذ بجسدك أن أنسى كيف رقصت عصابات الهاجانا على أجساد أطفال شعبي ،الحب لن ينتصر في قضيتنا يا "أماليا".



الثمن : 50DH

هذه النسخة الإلكترونية ل #رواية_الوطن_ليس_هنا من إعداد محبي ومتتبعي صفحة #الكاتب_المغربي_مراد_الضفري

رواية

الوطن ليس هنا

تأليف

مراد الضفري

عنوان الرواية: الوطن ليس هنا

المؤلف: مراد الضفري

تصميم الغلاف: أمينة بوجيدة

المطبعة: مطبعة سوماكرام-121، زنقة ميشال دولو سبيطال، الصخور السوداء. الدارالبيضاء – المغرب.

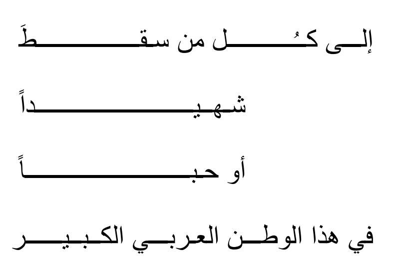
الهاتف: 00212661482909 / 00212522245536

الفاكس: 00212522245536

الموقع الإلكتروني: www.somagram.ma

رقم الإيداع القانوني: 2014MO2559

ردمك: 978-9954-627-13-6



إلـــى كـُــــــــل من سقـــــــــــطَ

شـهـيـــــــــــــــــداً

أو حـبـــــــــــــــــاً

في هذا الوطـــن العـربـــي الكـبـيـــــر

« … Un livre a deux auteurs, celui qui l'écrit et celui qui le lit »

Jacques Salomé – Je m'appelle toi

كان أبي يقول لي، "الحياة كأوتارِ العود، تَحسُّ بها جميلة مع نغمات الحزن أكثر من نغمات الفرح."

لكنه رحمه الله، كان ينسى دائما أنني لا أجيد العزف ولستُ بصانع عود!

"كاوس"

الحياة طريق معبَّد، وجدنا أنفسنا نسير عليه. يفرض علينا إشارات مروره، متى نسير، متى نقف، ومتى نعرجُ على اليسار أو على اليمين. لا يأبه بالمرة برغباتنا أو بما نريد .من يخالف قانونه إما أن يغادر إلى الطرق الصغيرة المتهالكة إلى حيث لا يدري أو يعرِّض نفسه إلى حوادث السير .

المشكلة في كل هذا أن لا أحد علمنا قانون سير الحياة ...!! ولا أعطانا رخص القيادة.!!

كلنا في هذه الحياة وفي هذا الوطن بالذات، نجري حيث نريد... دون أن نعلم أن في أحيان كثيرة نجري حيث لا نريد ...يدفعنا الأمل أو الهوس الذي أسماه محمود درويش وهو في لحظات انتشائه "سأصير يوما ما أريد..."

أي جنون أصاب محمود درويش تلك الليلة التي كتب فيها قصيدته الساذجة "سأصير يوما ما أريد"؟ ماذا كان يعتقد أن يصير في وطن لا يؤمن بالشعر ولا بالرواية؟ ماذا كان سيصير في وطنٍ خصورُ النساء فيه تجارة مربحة أكثر من الكتاب والكلمة؟

أكان يعرف أن شمعته ستنطفئ وهو وحيد منفي في مصحات أمريكا؟ أكان يعرف أنه سيصير عظاما تدفن في أرضٍ لا ترفرف فوقها راية فلسطين المحررة؟ أكان يعرف أن قبره سيضاء بشموع قرائه ومحبيه في الليلة الأولى لدفنه لتضيئه صواريخ إسرائيل وطائراتها في الليلة التالية وبقية الليالي؟

لقد غادرنا درويش وفي ذمته القصيدة الأخيرة التي لم يكتبها.فهل حقا صار ما يريد؟

متى سنتعلم من خبراء الإحصائيات دروس الاحتمال في الحياة؟ فهي في آخر الأمر إمكانية بين احتمالين، أن نصير ما نريد أو لا نصير، أن نحققَ مشاريعنا وأحلامنا في الحياة أو نعيش على شبحها وكأننا طالبو لجوء، حقائبهم الوحيدة هي تلك المساحات الفارغة التي غادرتها أحلامهم ليستوطنها الحزن.

حقائب حزن جلدية الصُّنع، تحمل ثياباً لا علاقة لها بصيحات الموضة، ثياب من علامات تجارية عربية رديئة كًمأساة الوطن"،" هجرة الأحلام"،"انكسار الذاتً،" حرائق الحبً و"الشعب يريد إسقاط النظام ."

فأي الحقائب نفتح عندما نزور أحبَّاءنا؟

أما أنا ... فقررتُ أن أفتح عليكَ، عزيزي القارئ، كل الحقائب وأرميكَ بكل النيران كي لا تُفلتَ من السقوط شهيداً وتنضم لقبري كي نصنع معا وبجدارة مَقبرةً جماعية للوطن والحب والأحلام وسقوط النظام .

أبدأ بالحب، ذلك المارد الذي يأتيك دون ترتيب، غير آبه ببرنامجك اليومي ولا بما ترتديه من لباس. يفرض نفسه بقوة وسط مشاريعك المستقبلية كرياحٍ عاصفة، أتتكَ على غفلةٍ من أرصادك الجوية. يأتيك في لحظة لم تكن تظن أن أحدا سيطرق بابك فيها. والحقيقة أن كلاكما طرق باب الآخر وفتحها له في الوقت نفسه. يبدو للوهلة الأولى أن الأمر ليس منطقيا، ولكن للحب منطقه الخاص.

أنا الآخر كنت أظن أنها رياحُ حبٍ عاصفةٍ عابرة، ستمرُّ بي وأنساها بالهروب إلى الحرب أو إلى أحضان بقية النساء.

كنت أظن أن أزيز الرصاص سينقذني من مقصلةِ غرامها وسيخرسُ في أذني إلى الأبد صوت كلمات الحب والعشق على دروبها، أو أن رصاصة ستسقطني شهيدها قبل أن أكون شهيد العرب في فلسطين، فأنتهي حينها من الحياة وممارسة كل الأفعال الزائفة بما فيها فعل الحب والاحتمالات.

لكنني كنت مخطئاً .فإلى اليوم سقطتُ مرتين، الأولى بفعل الجاذبية والثانية بفعل ابتسامتها ذلك اليوم وغمزة عينيها الغجريتين.

أتراها بعد كل هذه السنين تنتظر عودتي كعادتها؟

ألازالتْ تؤمنُ بمبدإ الوديان التي لا يغير سيل مياهها المسار الذي رَسمَته الجغرافيا لها وإن جفَّ السيل لمئات السنين؟

أتذكَّرُ ما قالته لي ذلك اليوم وهي تتفلسف في معنى الزواج الكاثوليكي الذي يجمعُ مياه الوديان ومسارها للأبد... وأنَّ الإنسان وحده، الذي اخترع فكرة الشوارع والأزقة والجسور لأنه ككل البراغيث لا يعرفُ مسارا واحداً أبدياً !!

جلستُ صباح ذلك اليوم على رصيف مقهى"ستيامار" التي أجلس بها كل يوم منذ أن قطنتُ بهذه المدينة العجوز، الرباط، قبل ستِ سنوات.

لا شيء تغير منذ ذلك الحين، سوى هذه الفوضى العارمة التي يعيشها العرب والتي بدأت بآمال الربيع لتنتحب برياح الخريف. العرب كعادتهم، يُجيدون الإخفاق في كل شيء، حتى في الثورة التي ظنوا أنها تبتدئ باحتلال الشوارع والميادين وتنتهي بتنحي الرئيس، ليكتشفوا أنفسهم وقد انتقلوا من إخفاق الأنظمة إلى عبث الشعوب.

ها هي الرباط تستقبل يوما شُتنبرياً جديداً بأنفاسها المثقلة بالضباب المتوالد على ضفاف أبي رقراق ومياه الأطلسي. ضباب كثيف يذكرني بالقتامة التي عاشت عليها أيامي الماضية، وبالمستقبل المجهول الذي ينتظرني بانكساراته وهواجسه التي غطت تاريخي وجسدي، وما تزال ...

خمس وثلاثون سنة من العمر، هذا هو الرصيد الوحيد الذي أملكه في الحياة. حياة من الحرمان والمعاناة. سنوات طويلة من النضال الجامعي والاعتقال والتعذيب من أجل قضايا غادرتنا ولم يعد لها وجود إلا في مسلسل الذكريات وحقائب الأمس، ومن أجل أحلام تلاشت في هذا الوطن الذي لم يعد يشبهنا في شيء.

الوطن هو ذلك الكائن الخرافي الذي يسكننا عوض أن نسكنه. علاقتنا معه أضحت ملتبسة وغامضة تلخص في ورقة. وهو لا يعرفنا إلاَّ على الورق !

عندما تولد يعطيك شهادة ميلاد. وعندما تبلغ سن الرشد يمنحك بطاقة ورقية تحمل رقمك الوطني. وعندما تريد مغادرة حدوده لا يسمح لك بذلك إلا بجواز سفر من ورق. أما عند موتك فهو يرفض دفنك في جوف أرضه إلا بتصريح وفاة من ورق.

أي وطنٍ هذا الذي لا يعرفني إلا بكومة من الورق؟ !! ترى هل يملك حاكم البلاد بطاقة وطنية؟

ألديه هو أيضا رقماً وطنيا تعرفهُ حواسيب الداخلية؟ لماذا عندما يموت الحاكم لا يبحث الوطن عن تصريح بالوفاة لدفنه، بل يعيش حالة حزن وفصل حداد!!

أليس موت الفرد العادي مأساة للوطن؟ أيؤمن هذا الوطن أيضا بالطبقية ورأسمالية الموت والحزن؟... ليس وطني، ذاك الوطن الذي لا يحزن لموتي؟

تركتُ عينيَّ اللتين لم تذوقا طعم النوم هذه الليلة تتسليان بتأمل وجوه الرباطيين وهم يسرعون في مشاويرهم الصباحية ...الكل يركض حيث يدري أو لا يدري ...

لمحتُ ليلى قادمة نحوي .لم أكد أرتشف رشفة خفيفة من فنجان القهوة الذي قدمه لي سعيد نادل المقهى، حتى كانت واقفة أمامي تتفحصني بعينيها العسليتين الناعستين ورموشها المحدَّبة المثقلة بندى الكحل. انحنى وجهها الغجري الجميل الذي لفه شعرها الناعم، الفاحم السواد، لتضع تحية الصباح على خدي الأيمن، قبلة حارة على طبق من شفتين عذبتين، يذوب عليهما أحمر عنَّبي شهي وعطر أنثوي أيقظ فيَّ كل شيء، إلا الأمل بقراءة عناوين مفرحة على جرائد الصباح التي تنتشر هراء هذا الوطن كل يوم دون كلل.

- كيف حالك هذا الصباح يا طارق؟

- كما كل صباح يا ليلى...

- ما بك حزين؟ أهي أحلام مزعجة راودتك ليلة أمس؟

- ألازلت تعتقدين أنه بإمكاننا أن نحلم في هذا الوطن؟

- إن كانت أحلاماً مزعجة ...أكيد، فهي كل ما تبقى لنا

يقطع سعيد، نادل المقهى، حديثنا مستفسرا ليلى هل يحضر لها فطورها الاعتيادي، لتجيبه بأدب بالغ أن يفعل.

دقيقتان فقط، انشغلت ليلى خلالهما بالبحث عن شيء تائه في حقيبتها، حتى أحضر سعيد كأس قهوة إيطالية وقطعة خبز جاف مدهون بجبنة بيضاء وعصير برتقال .أستغرب دائما كيف بإمكانها أن تدفع إلى معدتها كل هذا الفطور في هذا الصباح الباكر، بينما أنا عاجز عن غسل معدتي بفنجان واحد من القهوة!

نظرتُ إلى الساعة في يدي اليسرى .كانت تشير إلى الثامنة إلاَّ الربع .صِحتُ قائلا :

- تأخر عزيز ...

أجابت ليلى ورأسها لازال غارقا في حقيبتها الجلدية :

- المتزوجون يفضلون فطور المنزل يا عزيزي، علينا أن نعفيه من لقائنا هذا كل صباح، فهو لم يعد عازبا متسكعا مثلنا...

- إلى متى ستبقين عازبة يا ليلى؟

رفعت رأسها لتسمح لعينيها الجميلتين بتفحصي، ثم ابتسمَ ثغرها بكل أنوثة قبل أن تحرك شفتيها قائلة:

- ما دُمتَ عازبا يا عزيزي .عليَّ أن أطمئن عليك أولا، لا أريد أن أتركك وحيدا تفترسك العزوبية والوحدة.

ضحكتُ من كلام ليلى وأنا لا أعرف إن كانت تمزح أو تتكلم بجدية.

- من هذا الذي ستفترسه الوحدة؟

صاح عزيز وهو يقف بجانبنا فجأة دون أن نَلمحَ قدومه وقد علت وجهه الأبيض البشوش ابتسامة طفولية بهلوانية، فأجبته ساخرا ومحذرا في نفس الوقت :

- مدير الجريدة الذي سيطردك بسبب مقالاتك النسائية الحمقاء وسيطردني معك لمجرد أنني صاحبك.

قمتُ من مكاني ماسكا بيد عزيز مشعرا إياه بضرورة أن نغادر كوننا تأخرنا عن العمل.

- علينا أن نذهب يا عزيز، عندنا يوم عمل طويل...

- لكني لم أفطر بعد يا طارق...

التفتُّ إلى ليلى كي أغمزها ساخرا:

- المتزوجون لا يفضلون فطور المنزل يا عزيزتي.

ضحكنا جميعا، ثم انصرفتُ مع عزيز ليتبعنا صوت ليلى من خلفنا:

- لا تتأخرا عن موعد الغداء...

تعرَّفتُ على ليلى في ثاني يوم لي كطالب بجامعة محمد الخامس بالرباط. كنتُ يومها أقفُ لتصفح بعض المطبوعات الماركسية على طاولة تقف خلفها ليلى. علمتُ حينها أنها تنتمي لفصيل الطلبة الماركسيين اللينينيين.

كانت تتأملني باهتمام بالغ وكأنها تسبرُ أغواري. أحسستُ أنها تود محادثتي بكل طريقة. كنت أنا أيضا أمعنُ النظر في عينيها بعد أن أغراني جمالها. فلقد كانت كل فتاة جميلة تهتم بماركس ولينين تغريني حينذاك لأسباب أجهلها.

أنهيتُ تصفحي. وبينما أنا أهم بالمغادرة، سمعتها تقول لي :

- يمكنك أخذ ما تشاء إن لم تكن تملكُ نقوداً، المهم أن تقرأ.

فاجأتني بشجاعتها وإصرارها. أجبتها قائلاً:

- أشكر عرضكِ، لكنني لم أجد كتابا لم أقرأه بعد على طاولتكم.

جاءني صوتها بكل ثقة:

- لا يمكن ذلك، أنتَ تُكابر فقط. لا يمكن أن تكون قد قرأت كل هذه المطبوعات الماركسية. أكاد أجزم أنك لم تقرأ شيئاً منها.

- ومن أين تأتينَ بكل هذا الجزم والتأكيد؟

- لأنك طالب جديد بالجامعة، ومن الأكيد أنك تلتقي لأول مرة بروائع الفكر الماركسي.

فاجأتني من جديد بمقدرتها على معرفة أنني طالب جديد بالجامعة. خُيِّلَ إليَّ حينها أنها تعرف كل طلبة الجامعة فرداً فرداً.

- أنا آسف أيتها المناضلة إن كنت قد نسفت كل قناعاتك، فالفكر الماركسي الذي وصلكِ في الجامعة وصلَ أمثالي برائحة الدم أيام الثانوية.

نظرتْ إليَّ بعينين فاحصتين ثم لفَّت حول الطاولة لتقف أمامي بسمرتها الغجرية وأنفاسها العطرة. مدَّت إلي يدها اليمنى في دعوة للتعارف:

- اسمي ليلى ..ليلى المرابط، سنة ثانية إعلام وصحافة.

لم أفوت فرصة دعوتها، فلقد كنتُ تحت تأثير إغرائها وما زلت إلى الآن. وطوال كل هذه السنين، جعلت منها صديقتي ورفيقة دربي في محطات كثيرة. تقاسمنا معا الأحلام والانكسارات والنضال الطوباوي ولحظات العشق الحميمي.

كانت ليلى تأسرني دائما بعطفها وحنانها الأنثوي وجمالها الطبيعي السَّالب للنفس. فهي لا تضع مساحيق غامقة اللون، ولا تصبغ شعرها مع تغيرِ الفصول، ولا تضع عدسات لاصقة

كباقي الفتيات ولا تلهثُ وراء الموضة والعلامات التجارية العالمية .. هي مُغرية ببساطتها.

عند دخولنا مقر الجريدة أنا وعزيز، تسابقت إلى مسامعنا أصوات آلات الفاكس والهاتف وصياح بعض الزملاء .. انصرف عزيز إلى مطبخ الجريدة ليعد له فنجان قهوة.

في طريقي إلى مكتبي مرورا بقسم التحرير، أثارني حديث زميلتنا مريم التي كانت تتحدث وسط ضحكات بعض الزميلات عن طفل أختها الصغير، الذي أمسك بقوة بإحدى الفتيات الصغيرات في الشارع وظل يصرخ ويبكي في وجه والديه "أريد أن أتزوج بهذه .. أريد أن أتزوج بهذه ".

لم أستطع أن أحبس شفتيَّ من الابتسام وفي نفس الوقت لم أحبس نفسي عن التساؤل، لمَ علينا أن ننتظر حتى نكبر في السِّن كي نتزوج؟ ألا يصلح الزواج ونحن صغار؟ هل الزواج قضية تتطلب نضجا لا يأتي إلاَّ مع التَّقدم في السن؟ بهذا المنطق يكون الموت هو أنضج قضايانا في هذه الحياة لأنه آخر فعلٍ نقوم به.

دخلتُ إلى مكتبي وأنا أجترُّ صورة ذلك الطفل الذي يصرخ في الشارع، تذكرتُ معه أيام الدراسة عندما كانت الطفولة تخيم على سنوات العمر الأولى، تذكرتُ مقاعد القسم الخشبية والسبورة السوداء التي تفوح برائحة الطباشير وغباره، ثم تذكرتُ مرارة الوقوف في الصف بانتظام وأداء تحية العلم. آه كم كنتُ أكره تحية العلم.

لم أكن أستوعب كيف يمكن لطفل أن يردد كلمات لا يفهمها ولا يفهم مغزاها. أتذكر كيف كنتُ أسأل زملائي عن معنى تلك الكلمات فأجدهم هم الآخرون لا يعرفون شيئا. سألتُ المعلم مرة فقال لي"تلك كلمات الوطن"!!! ليدفع فكري الطفولي إلى الغوص في تخيلاته البريئة.

كلمات الوطن !هل للوطن فم يتكلم به؟ هل الوطن هو هذه الكلمات؟ ثم ما علاقة تلك الكلمات بذلك العلم الأحمر الذي كنا نرفعه كل صباح؟ .. لكن السؤال الكبير الذي كان يحيرني هو من كان ينزل العلمَ بالمساء لنرفعه نحن في الصباح؟!!

يا للعبث...

رنَّ هاتف المكتب، حملتُ السماعة ليأتيني صوت المدير:

- صباح الخير يا طارق.
- صباح الخير سيدي.
- من فضلك يا طارق لقد أبلغوني في قسم التغطية الصحفية أن زميلنا يونس لن يحضر اليوم، والمشكلة أنه كان مقررا أن يغطي مظاهرة الفبرايريين اليوم بالرباط. هل يمكن أن تحل مكانه؟ لا أستطيع أن أثق في زميل آخر غيرك.
- حسناً سيدي المدير، كما تريد.

- شكرا طارق، خذ معك كمال المصور.

أحسستُ أن مزاجي بدأ يتعكر لأن برنامج اليوم قد تغيَّر بالكامل. والمصيبة الكبرى أنني سأغطي عملا ميدانياً. أنا صحفي، كاتب مقالات سياسية ولستُ صحفيا ميدانيا يُجري حوارات ويغطي أحداث بعينها .. وأي أحداث، مظاهرات !

خطفتُ السماعة بسرعة وكأنني أنقذ نفسي من الكسل الذي بدأ يتسلل إلى داخلي. طلبتُ من كمال المصور أن يسبقني إلى السيارة. ما أن أنهيتُ المكالمة حتى دخل عزيز إلى مكتبي وهو يحمل فنجان قهوة ساخن تتصاعد سحابة دخانه إلى السقف.

خطفتُ منه الفنجان بدون لياقة وغادرتُ المكتب قائلاً:

- أنا في حاجة لهذا الفنجان أكثر منك ...

- إلى أين يا عم؟

أجبتهُ وأنا أسيرُ في الطرقة المؤدية إلى باب مقر الجريدة:

- تخيلْ، أصبحتُ صحفي تغطية .. سأغطي مظاهرة ...

أجابني وهو يطلُّ عليّ من باب المكتب كمختلس نظر:

- مبروك الترقية..

في أكدال، كانت مظاهرة الفبرايريين في بدايتها. أفواج كبيرة من الشباب تأتي من كل حدب وصوب لتنضم إلى جموع المعتصمين. وهاهم يحملون أعلاماً ولافتات كتبت عليها

شعارات الموضة الحالية للاحتجاجات: "الشعب يريد إسقاط الفساد،"هي كلمة واحدة هاد الدولة فاسدة ... "، فكرتُ في نفسي لمَ غيَّر هؤلاء شعار إسقاط النظام إلى إسقاط الفساد ؟ هل هناك خطأ إملائي؟ أم هي مسألة قناعة؟ أو ربما قلة شجاعة لا أدري .!!

بدأ رجال الداخلية بدورهم يتوافدون بغزارة على ساحة الاعتصام من كل شارع. ينزلون من شاحناتهم التي لم تغير ألوانها منذ سنوات الجمر والرصاص .. تماماً كما ألوان ثيابهم وأحذيتهم وقلوبهم.

بدأ عملي الصحفي بسيجارة، أحرقتُ رأسها بوحشية ليخرج من صدري دخان احتراقها .. التفتُّ إلى كمال فوجدتهُ يدخن. اتفقنا على بداية واحدة إذن ..

- كمال، أنتَ تعرف عملك، خذ صورا متعددة الزوايا لكل المشاركين في المظاهرة وأنا سأقوم بجولة صغيرة لتحديد هوية المشاركين وتياراتهم. نلتقي هنا بعد ساعة واحدة.

أجابني كمال بهزة رأس دون أن ينبس ببنتِ شفة.

في كلِ ركنٍ وزاوية من المظاهرة كانت تظهر لي شعارات عن الديمقراطية والانتقال الديمقراطي. كلُ أولئك الذين سألتهم عن مطالبهم في المظاهرة أعطوني مواعظ في فلسفة الديمقراطية والملكية البرلمانية حتى أصبتُ بتخمة ديمقراطية ...

متى سيعرفُ هؤلاء أن الإنسان لا يؤمن بشيء اسمه الديمقراطية؟ ألا يرونَ أن العالم قُسِّمَ إلى مجموعات استبدادية من دول تحكمه بدون منطق. هذه مجموعة الثمانية وتلك مجموعة العشرين والخمسة زائد واحد والدول الدائمة العضوية بمجلس الأمن وكأن بقية الدول لا معنى لها في هذا العالم الرث!!

الدول التي تتبجح على العالم بكونها عريقة في الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان هي نفسها التي تمارس ديكتاتوريتها في مجلس الأمن حاجزة المقاعد الخمس الدائمة لها وحق النقض. هي نفسها التي خاضت حروب العالم الكبيرة وصنعت الأسلحة النووية تعطُّشا لتدمير البشرية.

نحن لا نؤمن بالديمقراطية أصلا كي نطالب بها أو نتباهى بانتمائنا إليها. منذ ولادتنا تعلمنا أن الأب هو الحاكم المطلق في الأسرة، لا كلمة تعلو فوق كلمته. وفي المدرسة، يكون المعلم هو صاحب السلطة الوحيدة في القسم. أما في المساجد، فالإمام يفتي بما يريد، ولا أحد من حقه أن يجادل أو يناقش خطبته العصماء. وعندما نلج ميدان الشغل نجد مدير الشركة الآمر الناهي في كل شيء. وحين نخرج إلى الشارع، نجد الرئيس أو الملك يحكمنا بالخطب والهراوات والضرائب.

مع كل هذا الطغيان الفردي الذي مورس علينا منذ الصغر، لا أرى كيف يمكننا أن نؤمن بالديمقراطية أو نمارسها.

وأنا مغادر ساحة الاعتصام رفقة كمال، سقطت عيني على صورة كبيرة يحملها رجل ستيني، تظهر أحد موظفي الدولة وقد أفرط في الانحناء ركوعا لتقبيل يد حاكم البلاد. حينها غزت مخيلتي حادثة رجل من مسلمي مكة سارع إلى تقبيل يد الخليفة عمر بن الخطاب فرحا بعدما ساعده في أمر تجارته فنهره عمر قائلا" : ويحك ما صنعت ...! إنها لمنقصةٌ لك ومعظمةٌ لي، وإنِّي لست سوى واحد من المسلمين ."...رحم الله عمر .

* * *

كل أولئك الذين اخترعوا الساعات والهواتف والتلفزيون والفيس بوك والطائرات كان هدفهم تعقيد حياة الإنسان أكثر...

اتصلتْ بي ليلى على هاتفي المحمول كي تشبعني سيلاً من الشتائم بسبب تخلفي عن موعد غدائنا. طيلة ست سنوات لم أتخلف عن هذا الموعد إلاَّ لمرات قليلة بسبب قاهر. تلكَ المرات القليلة كانت تصيبُ ليلى بحالة غضب واكتئاب لطالما جعلتني أتساءل عن نوع الالتزام الجنوني الذي يجمعني بها.

في أحد الأيام التي تخلفتُ فيها، قالت لي والدموع تغسل شفتيها : "أنا يا طارق مصابة بعسر هضم لهذه الحياة وأنتَ دوائي الوحيد فيها."...

ساعتي كانت تشير إلى الخامسة زوالاً. أخذتُ وجبة سريعة رفقة كمال .كان وجهه متجهماً على غير عادته، لا ينطق بكلمة. تخيلتُ أنه يعيش ظرفاً عصيبا، لذا احترمتُ حزنه مقررا عدم تطفلي عليه بأسئلةٍ لا طائل منها.

قررت بعد ذلك أن أنسحب...

اتجهتُ إلى مقهى يُطلُّ على المدرسة الوطنية للصناعة المعدنية. لم أكترث لاسم المقهى. للوهلة الأولى بدا لي رواده مشتتي الفكر، يسبح كل واحد منهم في عالمه الخاص وقلة منهم انصرفت لمطالعة الجرائد أو تبادل الحديث.

جلستُ أنا أيضا منضما إلى حجاج هذا المقهى على طاولة جانبية تتطلع إلى الرصيف. انزلقتُ على قاع الكرسي لأتكئ برأسي على ظهره ومضيتُ أسترجع ما عشته في هذه السنوات من أحداث متسارعة انتهت بوجودي على رصيف الحياة.

استحليتُ استرخائي على الكرسي وخطر ببالي أن أغمض عيني قليلا من فرط التعب، لكنني لمحتُ نادل المقهى يقصِدُني. طلبتُ منه فنجان قهوة، أحضره لي في خمس دقائق. تخيلتُ كم تساوي حياتنا من خمس دقائق ومن فناجين قهوة وضحكتُ لفكرة أن تُحسبَ حياتنا بعدد فناجين القهوة عوض السنوات.

خطر ببالي وأنا أحتسي القهوة أن أكمل كتابة روايتي التي تأبى أن تكون لها خاتمة. لكن شعورا متناقضا سرعان ما دفعني

لأحجم عن الفكرة وأخذ الوقت الكافي لرص الكلمات بمخيلتي قبل أن أقتلها على الورق.

بينما كان فمي يلهث وراء آخر قطرات القهوة بالفنجان، رفعتُ عينيَّ لأسقطهما على منظر مجموعة من الطلبة يخرجون من باب المدرسة المقابلة للمقهى. كانت تتوسطهم فتاة بشعرٍ أشقر طويل وملامح جميلة هادئة توحي بالاطمئنان. كانت تبتسم وسط زملائها بعفوية طفولية تضيء وجهها الذي نحته الإله بكل رقة.

غابت عيناي في تقاسيم وجهها وحركات جسدها النحيف والحيوي. شعرتُ أن كل الأصوات صمتت بداخلي وأن عينيَّ تجاهلتا كل الحضور لتحدِّقا فيها بإمعان وكأن جسرا معلقاً يمتد إليَّ من عينيها يمرُّ عليه سحرها وجمالها الفاتن.

بدأ لون السماء يتغير من حولي إلى لون فاتح لم أره من قبل على لوحات الفنانين التشكيليين. حتى لون القهوة لم يعد أسود حالكا. لم يعد جسدي مثقلا بتعبه بل غدا نشيطا تسري فيه نشوة مفعمة بمذاق غريب. راحت تلك الفتاة تقبِّل صديقاتها مودعة إياهم ثم أدارت وجهها متجهة نحو سيارة سوداء فاخرة كانت تربد بالشارع أمام المدرسة منذ جلوسي بالمقهى أو ربما قبل ذلك.

بدأ قلبي يخفق بشدة وكأنه ينتفض رافضا أن تغادر هذه الفتاة. خطر ببالي أن أقفز راكضا إليها لكنني لم أملك الشجاعة لذلك ولم أعد أدري ماذا أصنع ...فتحتْ الباب الخلفي لتركب

وانطلقت السيارة مغادرة، تاركة خيبةً كبيرة تحوم حولي مختلطة برائحة الدخان الذي تركته.

شعرتُ بالجسر المعلق يتهاوى بقلبي بعد أن غابت عيناها. عاد لون السماء كما كان غامقاً يميل إلى سواد الغروب وعادت معه القهوة سوداء كما كانت وأكثر مرارة مما كانت ...انتابتني لحظات كئيبة جعلتني أخلِّصُ فنجان القهوة من طوق يدي وأقف مغادرا المقهى مقتفياً أثر السيارة الفاخرة التي تقلُّ تلك الفتاة خاطفةً روحي كشبح مضى وهو يرقصُ منتشياً على آهاتي ...

سرت من شارع إلى شارع، تائها وسط أصوات السيارات وأمواج المارة الذين يقطعون الطريق جيئة وذهابا. كنتُ بين الفينة والأخرى أتنفسُ بعمق على أمل أن يتحسس أنفي رائحة دخان تلك السيارة السوداء، لكن صوتاً عاقلاً بداخلي صاح ساخراً :أي أبله أنت؟ أتسير مقتفياً دخان السيارات لتصل إلى فتاة لا تعرفها؟...

مشيتُ ساعات تلو الساعات، أجرُّ رجلي التائهتين وقلبي الهائم في شوارع الرباط مخدرا بابتسامة ونظرة تلك الفتاة الشقراء الساحرة لأجد نفسي قد وصلتُ إلى المبنى الذي أسكن فيه وأنا لا أدري كيف حملتني ساقاي من أكدال إلى حسّان؟!!

رميتُ جسدي على السرير دون أن أزيل قطعة واحدة من ثيابي. دون أن أشعل أي ضوء بالغرفة، ضغطتُ على أحد أزرار جهاز الموسيقى لتنبعث منه كلمات سعاد ماسي مكسِّرة صمت المنزل ...

ديرني في بالك .. يا اللي نهواك

أنا قلبي اختارك .. قلبي اختارك، وما سبت دوا

اليوم راك معايا وغدوة يا درا

دي حوال الدنيا .. حوال الدنيا

حلوة ومرة...

ظلَّت شفتاي تتلذذان بكلمات سعاد ماسي وعيناي تسبحان في رسم صورة تلك الشقراء في ظلمة الغرفة.

تذكرتُ آخر قصة حب لي.

آخر قصة حب عِشتُها كانت عبارة عن عاصفة هوجاء كادت تهدد كل أركان هويتي .. قصة جعلتني نهايتها أجتر مرارة الانتماء وأتجرع كأس انهزام الحب في معارك السياسة وخريطة الأوطان والديانات.

آخرُ فتاةٍ سكتَ بعدها لساني عشر سنوات عن كلمة "أحبكِ" هي "أماليا"، تلك الفتاة التي التقيتها مصادفة في أحد المعارض الفنية وكأن القدر كان يكمن لي وسط اللوحات والألوان التشكيلية، وكأنَّ الله أمسك ريشتهُ الأنيقة ليرسم قدري لوحات فنية أجملها كان وجه" أماليا ".

أوهمتني في البدء أنها فرنسية من أصول لبنانية. أثارتني لغتها العربية الفصيحة بالرغم من ثقل لكنةِ لسانها ..

أحببتها منذ اللحظة الأولى وكان علينا أن نعيش الغرام ثلاث سنوات كاملة لأكتشف أنها أخفت عني جنسيتها الإسرائيلية وديانتها اليهودية. كانت صدمتي أعمق وأثقل من أن يتحملها تاريخي المليء بالمتناقضات والانكسارات والمعارك العربية ...

ألنا الذي ناضلتُ من أجل هذه الأمة العربية وجعلت من الصهيونية عدوه الأول والأخير أجد نفسي مع إسرائيلية نتقاسم الحب والسرير !! ..

أي ريشة تلك، كان يمسكها الله ليرسم بها قدري المحتال والمتناقض هذا. انسحبتُ حينها من حياة" أماليا"، ذبحتُ الحب قربانا لوطنيتي ومبادئي القومية العربية .. في الوقت الذي كانت فيه هي مُستعدة لذبح وطنيتها الإسرائيلية من أجلي ومن أجل الحب. لكن الحب لم ينتصر في معركتنا .. الحب لا ينتصر أبداً في معاركي...

بعدها بسنين، أصبحت أماليا في كل مرة تزور فيها المغرب تطلبُ رؤيتي. آخر مرة رأيتها فيها كانت منذ سنة ونصف بمقهى إيطاليا المقابل لمحطة القطار الرباط المدينة. كنتُ أجلس والإحساس بأنني أنتظر ابنة العدو يطغى من حين لآخر على مشاعر الحب الماضية التي تحركها أمواج الحنين .

- اشتقتُ إلى عيونك السوداء يا طارق.

قالت وهي تعانقني بكل رقة ولطف .. أجبتها بتوجس:

- أهلا أماليا .. أنا كذلك اشتقتُ إليك.

جلسنا على طاولة واحدة نتبادل الحديث بكل شوق ومودة في الوقت الذي كان فيه أهلي وأهلها يجلسون على جبهة واحدة يتبادلون الرصاص ولغة البنادق.

تعكَّر لقاؤنا كعادته من فرط رواسب الحروب بين أهلينا، فصاحت أماليا غاضبة:

- ما ذنبي إن كنتُ إسرائيلية وأحبك يا طارق؟ هل نملك أن ننتقي مسبقاً من نحب؟، هل أملكُ أن أشترط جنسية الرجل وديانته قبل أن أحبه ؟. أنا لا أفهمكم أنتم العرب، تقتلون الحب بكل برود بسبب السياسة والعروبة والمبادئ القومية وكأن الحب آخر اهتماماتكم في اللائحة !

- ما يفرقنا يا أماليا أكبر مما يجمعنا ... التاريخ والهوية والمبادئ وكل الأشياء التي ننتمي إليها تفرقنا ولا تسمح لنا حتى بهذه اللحظات المسروقة من تاريخ أهلنا. بين أهلي وأهلك قصص مكتوبة من الرصاص والمجازر واحتلال وطن. لا يمكنني أن أمارس معكِ الحب يا أماليا وأهلكِ يمارسون القتل ومصادرة أحلام شعبي. سيلُ القبلات ولحظات العشق الجميل التي منحتني إياها لا يمكن أن تخنق أصوات دبابات الميركافا وطائرات الأباتشي وأضواء الفوسفور الأبيض الذي أحرق شعبي. لا يمكنني وأنا أتلذذ بجسدك أن أنسى كيف رقصت عصابات الهاجانا على أجساد أطفال شعبي..

- المشكلة فيك إذن يا طارق وليست فيَّ. أنا مستعدة أن أحرق علم وطني أمامك وأن أنكر يهوديتي، فقط من أجلك، من أجل الحب. لكن أنت، هل تستطيع أن تقدمني لأهلك كزوجتك المستقبلية؟ هل ستستطيع أن تنجبَ مني أبناءك؟ هل ستنسى يوماً واحداً أن أبناءك ذاتهم يحملون دم عدوك؟

- أبداً لن أستطيع...

صاحت أماليا بكل حسرة وهي تُشعل آخر سيجارة في علبة سجائرها:

- اللعنة على خريطة الأوطان التي فرقتنا. أنا ألعنُ السياسة والحروب والجنسيات والأديان وكل من يتآمر على قتل الحب باسم المبادئ. فلتكن مسروراً أيها العربي ولتحمل شارة النصر، فقد حكمتَ على واحدة من أبناء صهيون بالأشغال الغرامية الشاقة المؤبدة في سجونك.

عند نهاية لقائنا ذلك اليوم أعطيتُ أماليا روايةً تحكي عن آلام العرب في فلسطين لعلها تعي لماذا لم ينتصر الحب على جراحي في قصتنا. قلتُ لها وأنا أمدُّ الكتاب نحوها بلطف :

- رجال في الشمس، رواية لكاتب اغتاله أهلكِ لأنهم لم يطيقوا كلماته. رواية شعبٍ شرده أهلكِ ليبنوا وطنا خرافياً لهم.

أشعلتُ سيجارة كانت ترقص بين أناملي لدقائق طويلة وأكملتُ كلامي متابعاً:

- بعد أن عرفتُ هويتك ذلك اليوم، أول شيء فعلته هو البحث عن معنى اسمكِ "أماليا". ها أنا الآن أهديك فرصة التعرف على معنى اسمي، أهديكِ هذه الرواية، فعلى العكس من اسمكِ، اسمي بحاجة لرواية كاملة من الألم العربي لشرحهِ.

"جايا"

أفقتُ في الصباح على أشعة الشمس التي سقطت بكل ألم على عينيّ بعد ليلة لا أعرف كيف بدأت ولا كيف انتهت. اتجهتُ إلى الحمام طالبا من سيل المياه الساخنة أن تغسلني من النعاس الذي لا زال لم يغادرني، ومن هذيان البارحة. لكن ما إن سقط الماء على جسدي المترهل حتى اجتاحتني صورتها من جديد لأتذكر ابتسامتها العذبة وعينيها الساحرتين. حاولتُ أن أفكر في برنامج اليوم وما يجب أن أقوم به في العمل كي أطرد شبح صورتها من ذهني لكنني أخفقت في ذلك...

نشَّفتُ جسدي بسرعة قبل أن ألبسه بذلتي السوداء. حملتُ محفظتي وغادرت شقتي مسرعا صوب المقهى وكأنني أهرب من شبح تلك الشقراء التي أيقنتُ أنّني وقعتُ أسيرا في شباكها.

في المقهى، كان عزيز وليلى ينتظرانني متسائلين عن سبب تأخري غير المعتاد. لم أكترث لعتابهما، طلبتُ فنجان قهوة وانغمستُ في التفكير العميق في بطلة الأمس: تلك الشقراء. بينما كان عزيز منشغلاً بقراءة الجرائد، كانت ليلى تتفحص ملامحي بخبث.

رمقتني عيناها بنظرات ثاقبة وكأنها تبحث في عيني عن شيء ما أضاعته، ثم أنزلتْ رأسها لتسمح لشفتيها برشف كأس القهوة الذي كانت تطوقه بيديها السمراوتين منذ دقائق طويلة.

شَرِبتْ رشفة خفيفة ثم أعادت نظرها إليّ وكأنها تترصدني.

التفتُّ إلى عزيز بجانبي لأهرب من عينيها فوجدته غارقاً في قراءة الجريدة ... تساءلتُ عمَّا كان يثير عزيز في الجريدة لدرجة أنه لم يكمل قهوته ونسيَ تواجدي أنا وليلى إلى جانبه.

ما إن أدرتُ وجهي إلى ليلى من جديد، حتى سقطتْ عيناي على عينيها. صحتُ غاضباً :

- ما بك أنتِ؟

رسمت ابتسامة شيطانية خبيثة على شفتيها ثم قالت:

- هناك شيء غريب حلَّ بك، عيناكَ مختلفتان هذا الصباح...

أجبتها بسخرية غاضبة:

- صحيح، أنتِ على حق ...فعيناي لا تعرفان النوم العميق من كثرة اتصالاتكِ المزعجة لي بالهاتف ليلاً...
- طارق أنتَ تُحب.
- ماذا؟!

- كما سمعت. أنتَ تُحب.

اعتراني شعور مخيف بأن ليلى أصبحت قادرة على معرفة كل صغيرة وكبيرة في حياتي فقط من عينيّ. لكن ماذا أقول لها الآن؟ هل أكذب عليها؟

لكن ليلى تعرفني جيداً وتحفظ كل طباعي وهمساتي، هي حتماً ستعرف أنني أكذب عليها. ما العمل إذن؟ أخبرها أنني أحبُّ فتاةً غيرها؟، هل أجرح عواطفها الرقيقة وهي التي تفرشُ أيامي حباً وتضيء ليالي عشقاً.

- كيفَ عرفتِ؟

- عرفتُ ككل المرات السابقة. أنتَ يا عزيزي عندما تسقطُ في الغرام تتكسَّر كل ضلوعك وتنوحُ عيناك بأنين الحب وآهاته. من تكون؟

- لا أعرفُها ... جمعتنا نظرة واحدة فقط، أنا من نظر إليها بالأحرى.

- حبٌ من النظرة الأولى إذن...

- ماذا فاتني؟

صاح عزيز بالعبارة الأخيرة وهو يطوي الجريدة بعد أن فرغ منها. لم يجبه أحد، غمزتني ليلى في إشارة لي بأن نؤجل حديثنا في الموضوع إلى مرةٍ أخرى. لكن شوقي بإخبار ليلى كامل

القصة كان قد اشتعل بداخلي وكأني في حاجة لأتقاسم معها هذا الشبح الجاثم على قلبي والذي يسمى" الحب."

أمسكتُ بيد ليلى وقمتُ بجرها مغادرين الطاولة إلى الخارج. التفتُّ إلى عزيز قائلاً :

- نلتقي في الجريدة يا عزيز.

صاح عزيز متهكماً:

- عيبٌ عليكما أن تتركاني هكذا، بإمكانكما البقاء والحديث عن قصة الحب هذه، سأغلق أذنيَّ.

سمعتُ ليلى تتمتم ساخرة من عزيز وهي تقول :غبي

نصف ساعة كانت كافية لأقطع أنا وليلى شارع محمد الخامس ببطء ثقيل وأنا أحكي لها كل قصتي مع تلك الفتاة الشقراء. كانت كعادتها تسمعني بإمعان، بقلبها قبل أذنها، كانت بين الفينة والأخرى ترمقني بنظراتها الناعسة وهي تلمعُ بقطرات الدمع المشتت على جنباتها. كانت هي نفسها تلك النظرات التي جعلتني أشعر بالذنب والألم وأنا أعرف أنني أمزقُ قلب ليلى بحديثي عن حب تلك الشقراء.

- عليك أن تذهب للحديث معها.

- لكنني لستُ متأكداً بأني أحبها يا ليلى ...ربما أنا فقط معجب بها وبملامحها الجذابة.

- لا ... أنتَ تُحبها.

أدهشني يقين ليلى من مشاعري وأنا مالكها لم أستطع التحقق منها.

- وإن افترضنا أنني حقاً أحبها، أنا لا أعرفها ! كيف أتحدث إليها وأنا لا أعرفُ عنها شيئاً؟

صاحت بسرعة بديهيتها كما لو أنها كانت تتوقع سؤالي.

- أنتَ تعرفُ أين تدرس وهذا يكفيك لمعاودة لقائها. اذهب كل يوم إلى مدرستها حتى تجدها وأخبرها بكل شيء بشجاعة. هي فتاة وستشعر بأحاسيسك كما أحسستُ أنا بها.

- لا أظنُ أن هناك فتاة تشبهكِ يا ليلى.

ما أن وصلت عبارتي بأكملها إلى أذنيْ ليلى حتى توقفت خُطاها. مدَّت يديها ببطء لتحزم شعرها الغجري إلى الوراء. وهي تلفُّهُ بأناملها الرقيقة، كانت تنظر إلى عينيّ بإمعان بالغ. لم أعرف فيمَ كانت تفكر ليلى حينها، لكنها قطعت عليَّ التفكير بجملة واحدة:

- عانقني ...عانقني قبل أن أذهب، أحسُّ بحاجة لمعانقتك.

- أنا كذلك يا عزيزتي، لكن نحن في الشارع والناس...

لم أكمل كلامي حتى ارتمت بافتراس على صدري لتعانقني. أحسستُ بالكم الكبير من مشاعر ليلى الجياشة، كانت دافئة،

حنونة كما أحبها. وكما عانقتني دون مقدمات، فارقتني كذلك دون مقدمات، قالت وهي تبتعد عنِّي بضع خطوات :

- أراك غدا، لن أستطيع الحضور للغداء اليوم، لا تنس شقراءك، اذهب إليها .

ابتعدت ليلى، فيما بقيتُ أنا متسمراً في مكاني، أنظرُ إليها حتى اختفت عن الأنظار ...لماذا عانقتني؟ لماذا لن تحضر للغداء؟ تركتني ممتلئاً بالأسئلة وبكلمات أغنية جميلة لمجموعة "وسط البلد" المصرية :

عانِقيني ...عانِقيني ثم إيه

ثم أبقى ...ثم تِبقي

ثم حِلوة عينيك ليه

ثم قلبك ليه مَرَدِش

ثم أنا أصبح مَحَدِش

ثم أسهر ثم فَتِش

ثم أعمى يعمل إيه ...

***

كانت ليلى ترقد إلى جانبي على السرير مُتخذة من صدري مخدة جسدية لها .ومن فرط ثقلها، وجدت صعوبة بالغة في التنفس وأنا أنفث دخان سجائري بالغرفة التي تحولت إلى حمام كبير نتيجة حرارة جسدينا ورائحة العرق الذي هطل منا بغزارة ككل لقاء حميمي يجمعنا.

ظلت دوائر الدخان تثير فضولي وهي تنبعث من فوهة السيجارة صغيرة ثم يأخذ قطرها في الاتساع وهي تتصاعد إلى السقف حيث تتلاشى هناك. حزَّ في نفسي هذا المشهد كثيراً وربطته بأحلامنا التي تكبر وتطير في العلا منذ ولادتنا ثم سرعان ما تنكسر في الأفق وكأنها لم تكن لنسلِّم أمرنا لهذه الدنيا التي تفرغ فينا سهامها بكل سادية ووحشية حتى لا يبقى لنا سوى الدعاء باللطف في القضاء والقدر. فكرتُ حينها في كلام بوذا عن كون الحياة ألم إجباري نعيشه جميعاً.

نهضت ليلى نازعة جسدَها الملتصق على صدري من فرط العرق بسرعة وكأنها تذكرت موعدا أو أمراً عليها قضاؤه...!!

- طارق، لقد تأخرتْ، عليَّ أن أذهب.

تحرر صدري من ثقل ليلى الذي كان يكتم أنفاسه وصار الشهيق يسيراً كما الزفير. سألتها:

- تأخرتِ عن ماذا؟

- عندي عشاء صحفي مع الروائي الجزائري الذي حدثتك عنه. أخيرا سنحت لي فرصة لقائه بفضل زيارته للبلد...

تحركت بداخلي أحبال الرجل الشرقي الذي يرفض أن تغادر عشيقته جسده إلى جسد رجل آخر حتى وإن كانت العلاقة بينهما خالية من أي التزام مشترك. سألتها مجدداً بصوت جدِّي يميل إلى سبر أغوارها:

- وأين سيكون هذا العشاء" الصحفي"؟

نطقتُ الكلمة الأخيرة بنوع من السخرية المقصودة وكأني ألمِّح لها أنني كشفتُ خبثها وإخفاءها موعدا غراميا مع ذلك الروائي الجزائري، الذي سيصبح جسده بعد دقائق محطة الوصول بعد أن كان جسدي محطة العبور لهذه الليلة، وربما لم تكن الوحيدة ...لكن لا يمكن ذلك، ليلى تحبني وظلت وفية لي كل هذه السنين رغم طباعي المزاجية.

التفتت إلي وهي تثبتُ حمالة صدرها الحريرية، سوداء اللون، وقد ارتسمت على شفتيها الجافتين، من فرط القبلات الحارة التي تبادلناها قبل قليل، ابتسامة تحملُ في طياتها سعادتها بالغيرة الرجولية التي اجتاحتني على غير عادتي.

- سألتقيه بمطعم الفندق الذي ينزل فيه، فندق الديوان. أقرأتَ روايته؟

أجبتها ودخان السجائر يسابق الكلمات في الخروج من فمي:

- أنا مضرب عن القراءة والكتابة هذه الأيام إلا من المقالات السياسية التافهة التي أنشرها على أعمدة جريدتنا...

- أنتَ لا تنوي أن تكمل روايتك إذاً؟

قالت وقد بدأت تصفف شعرها الفاحم السواد بعد أن ألبستْ جسدها الثياب التي كانت قبل قليل مبعثرة بأرجاء الغرفة.

- لا أعلمُ يا ليلى ...ليست لدي الرغبة في الدخول إلى نادي الكتاب والروائيين الذين يعرضون حكاياتهم الوهمية على الناس مقابل مبلغ مالي، يكتبون لهم لشراء المجد والشهرة، لاعتلاء منصات الحفلات والأمسيات الأدبية وكي يشار إليهم بالأصابع ويتهامس حولهم الناس. تُرعبني فكرة أن أعرض كلماتي على واجهات المكتبات وقد كتب عليها سعر البيع وكأن الشرط الوحيد لامتلاك تلك الكلمات هو أن يكون بجيبك السعر المطلوب.

أتعلمينَ أن الروائيين زملاء لبائعات الهوى في العهر؟!

- العهر؟ كيف؟!!

- بائعات الهوى يعرضن أجسادهن لخلق متعة جسدية مقابل سعر محدد يتغير وجمال الجسد واكتنازه ومقدرة صاحبته على الإغراء. كذلك الروائيون، يعرضون علينا مضاجعة كلماتهم والحصول على الانتشاء الفكري الذي قد يأتي وقد لا يأتي. الفرق بين الروائيين وبائعات الهوى هو أننا ندفع مسبقا للأولين عند شراء رواياتهم أما بائعات الهوى فهنَّ

أكثر مهنية حيث يستخلصنَ سعرهن بعد الأداء، وأحيانا يمتعننا بخدمات ما بعد البيع...

قهقهت ليلى ضاحكة حتى تطاير لُعاب فمها على المرآة التي كانت تنتصب أمامها منذ دقائق طويلة. لا أفهم سر غرام الفتيات بالمرآة...

أطفأتُ السيجارة التي كنتُ أدخنها وحملت جسدي واقفا وراء ليلى التي بدت أنها مستعدة لتوديعي بعد التأكد من سلامة زينتها.

طوقتها بذراعي معانقا إياها من الخلف وكأني أستمدُّ منها جرعة أخرى من الحنان والعطف الأنثوي الذي لم أكن أشبع منه لأسباب مجهولة.

أوغلَت أناملها الرقيقة بين شعرات رأسي المتكئ على كتفها الأيمن وغدت تدغدغني كطفل لجأ لأمه بعد أن استوحش النوم بعيدا عن أحضانها...

- اكتبْ لي يا طارق، إن لم ترغب بنشر كلماتك ليقرأها الناس، اكتبْ لي ...
- أنا لا أكتب للآخرين يا ليلى، كلماتي جزء مني لا تفهمها إلا أجزائي الأخرى، لذلك أنا لا أكتب إلا لنفسي. الكتابة فعل فضيحة، تفضح ما يجول بداخلك بواسطة كلمات قد تُقرأ بإعجاب أو بسخرية. وفي الأخير، الكاتب وحده من سيفهم مغزاها. فلماذا نكتب إذاً؟ لا يمكنني أن أكتبَ كلمات صادقة مليئة بالحياة يا ليلى وأنا أحتضرُ من وقع انكساراتٍ لا

تندمل. لا يمكنني أن أصير كاتبا وأنا أعيش في وطن غائب. على الرصيف أسير، أغادر من محطة إلى أخرى مثقلا بكل حقائب الماضي الثقيلة وحقائب المستقبل التي تنتظر أن تمتلئ على غفلة مني. أنا وأنتِ يا عزيزتي لا عنوان لنا، ولا يمكن أن نجد في الكتابة عشاً نلجأ إليه عندما يطفئ الليل نهارنا.

- أتمنى أن تراجع موقفك هذا.

لم أكترث لعبارتها الأخيرة. فضَّلتُ أن أستمتع بتمريغ أنفي في عبق عطرها الأنثوي المغري، الذي كان يُلحدني في خنادق عميقة محفورة بقلبي منذ زمن، محولةً إياه إلى منطقة عسكرية محظورة على كل امرأة لا تجيدُ المشي وسط الألغام...

- هل ستشاركُ غدا في ندوة الحزب بالدار البيضاء حول القومية العربية؟

- ربما. يحزُّ في نفسي أن القوميين العرب بالمغرب لم يتكتلوا لحد الآن في إطار واحد، وفي نفس الوقت لا رغبة لي في نبش دفاتر الماضي يا ليلى، ولكن الرفاق ألحُّوا على حضوري.

- وأيُ دفاتر تنبش فيها الآن يا سيدي؟

- دفاتر الحب...

نظرت إلىَّ ليلى مستغربةً، ثم سألتني:

- آه حقاً، هل من جديد مع حبيبتك الشقراء؟

فاجأتني ليلى بسؤالها وكأنه صفعة لطمت قلبي بوحشية، لكنني تظاهرتُ بعدم الاكتراث لسؤالها، قائلاً:

- لقد تأخرتِ يا ليلى عن عشاءك الصحفي، سأذهب لأستحم. أغلقي خلفك الباب من فضلك...

فتحتُ باب الغرفة قاصداً الحمام، فإذا بالهواء البارد يلفح جسدي الساخن والمتعرق. فكرتُ أنني سأصاب بنزلة برد وفكرتُ أيضا أنني سأشتاق لليلى التي لا أتحمل أن تكون بعيدة عني ولو لساعات معدودة.

هزمتُ كل هذه الأفكار بصورة تلك الشقراء التي قفزت إلى مخيلتي من جديد وأنا أدندنُ بكلمات إحدى أغاني سعاد ماسي ..

* * *

في مقر الحزب الاشتراكي الموحد أنهى المسير الندوة بكلمة ختامية لا تخلو من مجاملات مصطنعة لا أطيقها كما لا أطيق الجو الثقيل الذي يتلو الندوات واللقاءات الثقافية، حيث تتشكل مجموعات صغيرة هنا وهناك، يكون بطلها شخص أو شخصان معروفان نسبياً لدى الحضور، يستفرغون أحاديثهم الفارغة وملامحهم البطولية الزائفة...

تظاهرتُ أنني منشغل بإعادة أوراقي إلى محفظتي كي أتجنَّب البعض من هذه المجموعات الطفولية، في الوقت الذي رأيتُ فيه أستاذي القديم محمد وقد سُحِبَ من طرف رفاقه إلى هذه الأحاديث الجانبية ...

تقدمت نحوي فتاة عشرينية العمر بكل شجاعة، غير آبهة بما انشغلت به يداي، تضع مكياجاً هادئاً غير مثير، لكن ما أثارني فيها هي أظافرها الجميلة المطلية باللون الأسود.

- معذرةً أستاذ طارق، لكن وددتُ أن أعرف منك أكثر كيف يمكن للفكر القومي العربي أن يلتقي بالفكر الشيوعي مرحليا؟!

كنتُ ما زلت منهمكا في جمع لوازمي وعيناي موزَّعة بين محفظتي وأظافرها ذات الطلاء الأسود. بدأ سؤال غريب يجوب في فكري حينها: كيف لفتاة بعمر الزهور أن تترك كل هذه الحياة الصاخبة بكل إغراءاتها؟، أن تترك أصدقاءها ومشاريع

السهر والأمسيات كما تفعل بناتُ جيلها وتنشغل بالفكرين الشيوعي والقومي العربي وبعالم السياسة والنضال...؟!

رفعتُ رأسي بسرعة وأنا أتظاهر بالعجلة من أمري، لأجد مجموعة صغيرة قد تشكَّلت حولي وحول الفتاة التي بدت ملامحها تشتد في انتظار جوابي. أحسستُ أنه لابد لي أن أقول شيئا.

- ما اسمك يا آنستي؟

- وفاء...

- أنتِ شيوعية يا وفاء؟

- أنا قومية عربية، ناصرية بالتحديد

أجابت بسرعة مدهشة ملؤها الفخر والزهو.

- أولاً يا آنسة وفاء، القومية العربية هي فكر سياسي وفلسفي نبيل، همهُ الأساسي وحدة الوطن العربي. فلا يصحُّ وأنتِ قومية عربية أن تتخندقين وتجزئين قوميتك إلى ناصرية أو بعثية. لو نظرنا بموضوعية سنجد أن لا اختلاف بين القوميين العرب إلاَّ في التفاصيل والجزئيات، وفي التفاصيل يسكنُ الشيطان. أنا قومي عربي أيضاً، أمجِّدُ البعث كما الناصرية. أمازلتِ تريدينَ أن أجيبكِ على سؤالك؟

أجابتني بابتسامة جميلة وبتلهفٍ كبير:

- أكيد لو سمحت.

شرحتُ لها أن النضال القومي العربي ينخرط ضمن حركات التحرر العالمي، وأن نظرية" سمير أمين "الماركسية حول صراع دول الهامش مع دول المحور الإمبريالية تسري على الصراع العربي مع القوى الإمبريالية. ولما لمحتُ عدم اقتناعها الكبير سردتُ لها موقف ليون تروتسكي من الحركات القومية والوطنية التي اعتبرها مقدمة الصراع مع الإمبريالية.

سمح بعض الأشخاص الواقفين معنا لأنفسهم بالإدلاء بدلوهم، هذا يعقب على جوابي مدافعا والآخر يوضح أنه رأي شخصي لا يرقى إلى حقائق فلسفية فكرية، فتعالت الأصوات لتنضاف إلى الكم الصوتي الكبير الذي يجوب القاعة من فرط تناسل المجموعات والأحاديث الجانبية.

فتحتُ محفظتي لأجلب علبة سجائري البيضاء لتسقط عيناي مجددا على الطلاء الأسود الذي يصبغ أظافر وفاء...، استأذنتُ من المجموعة مغادرا بدعوى رغبتي في التدخين.

ما إن خرجتُ إلى باب مقر الحزب حتى أشعلتُ سيجارتي وأطلقتُ أرجلي لأهرب من هذا المكان الذي يوغل بي في ذكريات الماضي الخانقة، فإذا بيد تشدُّ مرفقي الأيسر بقوة لتوقفني.

- لازلتَ تجيد الهروب من الضجة كعادتك أيام الجامعة...
- أستاذ محمد .!! لا العفو، كيف لي أن أهرب من أستاذي!
- إذن، فلتضايف أستاذك بفنجان قهوة، فأنا أشتاق لتلميذي العزيز.

- حسنا ..شرف لي.
- فلتأخذني لمقهانا القديمة، أوديسا، في ساحة الأمم المتحدة.

حرَّكتُ رأسي موافقا وسعادتي ظاهرة على محياي لأن أستاذي محمد غادر كل رفاقه ومعارفه مبديا اهتماما بالغا بي. ظللنا طيلة الطريق الفاصلة بين مقر الحزب الكائن بزنقة أكادير ومقهى أوديسا بوسط المدينة نجتر الذكريات الماضية حيث كنت طالبا بالجامعة وكان أستاذي محمد حديث العهد في تعيينه كأستاذ جامعي.

صاح أستاذي محمد، بعد أن شرب جرعة من فنجان القهوة الذي وضعه النادل أمامه قبل ثوان:

- لقد تغيرت كثيرا يا بني ...شكلاً ومضموناً.
- أما شكلاً؟!

أجبته بسخرية مهذبة تخفي وراءها فضولا غريبا ليجيبني وهو يشاطرني الابتسامة الساخرة.

- أما شكلا، فقد أذهلني الشيب الذي غزا جنبات رأسك وعلامات الشيخوخة المبكرة على محياك. يا طارق أنا أبدو أصغر منك بكثير وأنا في عقدي الخمسيني!!

ترك الأستاذ محمد بعض الثواني للصمت وكأنه ينتظر تعليقا منّي على ما قاله ...لكن طالت ثواني خيبته ليتدارك كلامه.

- أما مضموناً، فقد مات فيك طارق الشاب الحيوي الذي كان يملأ الجامعة ضجيجا بصوت خطاباته ونضاله الشرس من أجل تغيير هذا العالم إلى الأفضل. انظر إلى نفسك، أنتَ لم تعد قادرا حتى على الحديث والتعبير عن آرائك كما كنت. بدأتَ تلجأ إلى الصمت، لا أدري إن كان هرباً أم انسحاباً؟ ماذا يا طارق ؟، هل روَّض الزمن حبالك الصوتية وأسقط عنها كل حروف كلماتك، أم أن شمعتك بدأت تنطفئ ليحلَّ الظلام والسكون عليك؟

- ليس هناك من داع لكلامك هذا أستاذ محمد. أنا لم يتغير فيَّ شيء، لكننا نمر جميعا بخيبة أمل عندما نكتشف أن هناك فرقا شاسعا بين ذاك العالم الذي رسمناه وحلمنا به وبين العالم الحقيقي الذي يغتصب أيامنا على غفلة منَّا. كل ما في الأمر يا أستاذ محمد أنني استهلكتُ كل أدواري في الجامعة وفي الحزب، وكل رفاق الأمس انفضُّوا من حولي. لم تبق ليَّ سوى ليلى الآن، أتذكرها...

- نعم، الفتاة التي تشبهك في كل شيء...

أجبتُ وأنا أسكبُ الشاي في كأسي من جديد:

- صحيح، هي فعلا نسختي المطابقة، هذا كل ما في الأمر يا أستاذي العزيز. صحيح أنني انصرفتُ إلى حياة مملة لا أحلام كبيرة فيها ولا آمال عريضة، ولكن هي على الأقل حياة طبيعية...

- أتظنُّ أنني أصدق ما تقول؟ !أنا أعرفك جيدا وأعرف سبب عدم إقبالك على الحياة وأعذرُك ...لذلك اسمعني جيدا يا طارق، نحن جميعا ناضلنا من أجل هذا الوطن وضحينا بكل شيء في سبيله، اعتقلنا وشُردنا وعشنا لسنين طويلة على الحديد ... لكن من الخطأ أن تنتظر من هذا الوطن أن ينصفك وأن يكافئك على كل ما فعلت. هذا الوطن لا يعلِّقُ الأوسمة إلا على صدور سارقيه ولا يوزعها إلا على أولئك الذين حولوه إلى بقرة حلوب. لا تنتظر شيئا منه، عش بأحلامك كاملة لا ببقاياها فقط ... صديقك محمود درويش كان يقول دائماً "قف على ناصية الحلم وقاتل .." قاتل يا طارق، لا تفقد الأمل .. لا تهرب، كن أنتَ الوطن.

***

"إيروس"

قف على ناصية الحلم وقاتل.

قررتُ أن أعمل بنصيحة ليلى وأستاذي محمد. سأقاتل من أجل أملٍ في قصة حبٍّ نُسجت خيوط بدايتها يوم رأيتُ تلك الشقراء. كانت الساعة تشير إلى السادسة مساء عندما كنتُ أقفُ أمام باب المدرسة الوطنية للصناعة المعدنية وجموع الطلبة تتدافع نحوي ثم تجتازني.

أتيتُ بحماسة وكم كبير من الشجاعة لأمسك يد تلك الفتاة الشقراء وأحكي لها عن مشاعر الحب التي احتلَّت قلبي بسببها. انتظرتُها طويلا لكنها لم تظهر ... كنتُ أبحث في وجه كل فتاة تمر بجانبي عن ملامح تلك الشقراء وشعرها الذهبي، وفي كل مرة كانت خيبتي كبيرة.

فجأة، وأنا أحمل رأسي لأنثر دخان سيجارة أشعلتها لتوي، ظهر لي شعر أصفر فوضوي، يتوسط مجموعة كبيرة من الطلبة، فتيان وفتيات يتمازحون ويتحدثون بأصوات عالية.

كان ذلك الوجه يقترب مني وملامح تلك الشقراء تظهر لي واضحة مع كل خطوة تخطوها سيقانها الجميلة نحوي. خفق قلبي .. ظل يخفق ويزداد خفقانا كلما اقتربتْ مني تلك الشقراء

بخطوة. غابت شجاعتي واختفت كل الأفكار التي رتبتها لهذا اللقاء...

ها أنا أقفُ جباناً أمام الحب بعدما ظننتُ أنني أملكُ الشجاعة لكل شيء.

مرَّت بجانبي دون أن أحرك ساكناً. كنتُ مخدرا بجمالها وملامحها الطفولية وابتسامتها التي صنعت لي أملاً رأيته يتلاشى من فرط خيبتي وجُبني أمامها .. مرَّتْ بجانبي، رمتني برصاص عطرها وغادرتْ كطاغية تتفننُ في صُنعِ شهداء الحب ومعذبي الغرام.

-زهرة .. زهرة.

هكذا سمعتُ إحدى الفتيات تنادي تلك الشقراء وهي تركضُ نحوها، كي تخبرها بأمر ما..

زهرة .. هذا هو اسم تلك الشقراء إذن. وكيف لا يكون كذلك وهي الزهرة الشقراء التي نبتت وسط حديقتي الجرداء، القاحلة من كل ترانيم الجمال والحب..

زهرة هي العتبة التي لابد أن تزهر عليها كل أيامي ويصبح للوطن معها ألف معنى. ولا وجود لي إلا عندما سأقول أحبك.

مضيت، وأنا أجر ذيول خيبتي، إلى رصيف المقهى المجاور للمدرسة أشجبُ جبني وضعفي أمام أمواج الحب، لكن اسم زهرة أعطاني أملاً جديداً، زرع في نفسي الحماسة ورسوت

على فكرة أن أكتب لها رسالة وأعود للقائها، فليس بإمكاني أن أتخلى عنها بهذه السهولة.

وزَّعتُ نظري على المارة على أمل أن أقتلَ خيبتي وأن أسلِّي عيني بجمال الفتيات اللواتي كن يقطعن رصيف المقهى. كلما نظرتُ إلى جسد امرأة أتأمل عظمة الخالق وفنه الرفيع. كيف خلق جسداً بكل هذه الانحناءات والتموجات المغرية؟، كيف ينفخ في جسد طفلة تضاريس امرأة ناضجة تتسابق نهداها بإقدام وفخر إلى الأمام دافعة رؤوس الحلمات التي لم تعرف حمَّالات الصدر بعد، إلى شق طريقها بكل ضجيج أنثوي إلى ما وراء الثياب؟ أما تلك الخصور التي تحكي في مشيتها تاريخا من الصراع الأبدي بين عدوتين كلفتا البشرية سنوات ضوئية من الشعر والغزل والنكبات الرجولية. هل كان سيبقى للخصر إغراؤه لو وضعه الخالق في مكان آخر من جسد الأنثى؟.!

لازلتُ أذكر أول مرة نظرتُ فيها إلى جسد امرأة عارية. كنتُ حينها لا أتجاوز الثانية عشرة عاما عندما كانت العائلة تحتفل في البادية بعرس أحد شبانها.

جلستُ بجانب حائط من الأحجار بعيدا عن المنزل القروي الذي ملأته ضوضاء العرس، فجأة سمعتُ صوت سيارة كبيرة الحجم على شكل شاحنة وقفت بجانبي، سألني السائق عن المنزل الذي يقام فيه العرس. في البداية، من فرط مزاجي العكر أشرتُ له فقط بيدي إلى المنزل دون أن أغادر مكاني ودون أن أنبس ببنت

شفة، لكن فضولا طفوليا اجتاحني لمعرفة من بالشاحنة، دفعني دون أن أفكر إلى الالتصاق بمؤخرتها.

وقفت السيارة أمام المنزل، ترجَّل سائق الشاحنة قاصدا أفراد عائلتي، تبادلوا الحديث للحظات ثم عاد ليفتح أبواب السيارة. ظهرت لي أربع نسوة مكتنزات الجسم أفرطن في وضع المساحيق على وجوههن.

صاح السائق:

- يا الله أشيخات وجدوا ريوسكم، حنا راه في دار العرس...

فهمتُ أن هؤلاء النسوة سيغنين ويرقصن في العرس على الطريقة الشعبية الرائجة في البوادي والمسماة بالعيطة. قطع عليَّ السائق متابعة النسوة بغلقه أبواب السيارة الكبيرة ليسمح لهن بتغيير ملابسهن، لكن فضولي كان أكبر من الاكتفاء بهذا القدر من المتابعة.

صعدتُ فوق السيارة لأنظر من أحد الشقوق إلى ما يجري بداخلها. سمحت لي زاوية النظر أن ألمح جسد المرأة التي كانت تقف بجانب الباب، هالني المنظر وكأنني أنظر أول مرَّة لمخلوق لم أعرفه قبل اليوم. ظهر لي جسد ثلجي من فرط البياض، تتعدد انحناءاته صعودا وهبوطا، يغرقُ في طيَّاتٍ وفوالق تتدفق عذوبة وأنوثة. أسدِلَ على الكتفين الرقيقين شعر أسود يتدلى إلى أقاصي الصدر، حيث سبقه نهدان كحمامتين بيضاوتين عُلِّقتا من

أرجلهما لتتدلى رؤوس الحلمات بدورها متطلِّعة لما وراء الخصر، وما وراء وراء الخصر.

قفزتُ من فوق الشاحنة قبل أن تفتح النسوة الباب خشية أن يرينني، غادرتُ حينها وأنا أجهل سبب انتعاشة خفيفة اجتاحتني كدغدغات كهربائية لكنني كنتُ أعلم أن رجليّ تقودانني بلهفة لحجز مكان لي بساحة العرس كي أكمل الفرجة.

***

في ظهيرة اليوم التالي تسمَّرتُ أمام باب المدرسة أشاهد أفواج الطلبة التي تندفع من البوابة صوب الشارع ومرآب السيارات. لم ينتظر قلبي طويلاً لتظهر له زهرة وهي ترتدي فستانا أزرق فاتحا وكأنها تخرج من حفل ساهر وليس من الفصل المدرسي. كان منظر شعرها الأشقر المسدول على صدرها كأمواج من مياه الذهب مغريا، يزداد إغراؤه عندما تلعب الريح بخصلاته المتطايرة، تماماً كما تتطاير الآن جوارحي وهمساتُ قلبي كقشةٍ تائهة في بحر الغرام.

أحسست أن المقدرة على ارتجال كلمات أقولها لزهرة في أول لقاء قد خانتني، وها أنا الآن لا أعرف كيف سأكلمها؟ أو كيف سأبوح لها بحبّي؟ ثم سألت نفسي مجددا هل أنا أحبها حقا؟ كيف لي أن أحب فتاة لا أعرفها ولم تحدثني يوما؟ تذكرت أحلام مستغانمي عندما قالت إن هناك حب حتى ما قبل النظرة الأولى ...!!

من يسخر منِّي الآن؟، زهرة؟ ليلى؟، أستاذ محمد؟، أحلام مستغانمي؟، أم الوطن؟.!

الوطن الذي لم تكفيه أحلامي التي صادرها بالجملة وآمالي التي باعها بالتقسيط، لينثر لي ورود الحب في الطريق، حلما مفخخا يكون الوطن هو حزامه الناسف.

الوطن، هو ذلك الإرهابي الذي يأتي بدون دعوة ليقف بينك وبين أحلامك فارضا عليكَ تطرُّفه وتفجُّره بكل سادية...

قتلتُ مشاعر الارتباك والتردد مع آخر نثرة لتلك السيجارة التي أحسست حينها أنها لا تنتهي بين أناملي، وأطلقت رجلي متجهاً نحو زهرة بكل حماسة وجنون. انتبهت صديقتاها الاثنتين اللتان كانتا على يمينها لقدومي نحوهن، وما هي إلا ثوانٍ حتى انضمت عينا زهرة إليهما ...

لم أستطع تمييز لون عيني زهرة، أكانتا خضراء؟ أم زرقاء؟ أم رمادية؟، كانت كل ألوان الطيف تصبغ عينيها اللتين تحولتا إلى رشاش حربي يرمي صدري برصاص الغرام المتتابع حتى وقفتُ أمامها جثةً هامدةً تجمدت على حدودها كل الكلمات والحركات.

ها أنا أقف أمام زهرة. كلانا ينظر إلى عيني الآخر ليغتسلَ بمائها استعدادا للصلاة معاً في محراب الحب. نتحدث دون كلمات ودون لغات، كأننا نتآمر على كل قواعد الصرف والنحو التي تترصد أخطاءنا.

وقفتُ أمامها صامتاً، مصلوباً، كمسيح جديد، معلَّق على صليب عينيها وشفتيها الورديتين. خانتني كلُّ الكلمات ووجدتني أغوصُ في ملامحها كتلميذ مبتدئ يتهجَّى حروف الحب.

صاحتْ بكل ارتباك وتوجس:

- ياك لا باس؟ ...! ماذا هناك؟!

لم أستوعب ما قالته زهرة حينها، كان بصري مشتتا على شفتيها الورديتين اللتين تتحركان بأناقة بالغة وحواسي تتحسس أنفاسها العطرة التي لفَّت حبلا على عنق كلماتي، معلنةً إعدامها بتهمة السقوط في الغرام. جاءني صوتها للمرة الثانية، هذه المرة برنة فرنسية موغلة في البورجوازية:

- On se connait Monsieur ?

أحسست أن وضعي أصبح مبتذلا أمامها، فتداركت نفسي مرتجلا ببهلوانية :

- اسمي" طارق ولد الخيل"، وهذه اللحظة التي أعيشها الآن انتظرتها زمنا طويلا.

لنقل إن كل العشاق يعيشون على أمل هذه اللحظات التي كتبت لنا حكايات عشق خرافية غالبا ما انتهت بمأساوية، إلا تلك التي عاشت بأمل كبير. على هذا الأمل الكبير أقف أمامك اليوم يا زهرة.

عندما رأيتك أول مرة من على ناصية تلك المقهى، بدأت أرى قدماي تدمنان المشي على دروبك، تبعثُ خطاكِ لساعاتٍ طويلة بين هذه المدرسة وهناك حيث تنتظرك تلك السيارة السوداء. انشغل فكري بصورتك التي أقفلَ عليها إلى الأبد بين أسوار مخيلته، تارةً تبتسمين لأصدقائك وتارة أخرى تداعبين خصلات شعرك التي لا تَكِلُّ عن مغازلة وجهك الجميل. ليالٍ طويلة سرقتِ فيها النوم من عيني،

وتواطأتِ فيها مع الغرام والحب لقتلي، لتحتلي كل أملاكي... وعلى رأس القائمة، قلبي.
فبماذا أحاكمكِ إذن؟، بتهمة السرقة، أو التواطؤ بغرض القتل أم احتلال أملاك الغير؟

ارتسمت ابتسامة لطيفة على محيا زهرة، في حين التقطت أذناي قهقهات صديقاتها وغمزاتهن. بالرغم من تلك الابتسامة التي كانت تقول: هل من مزيد؟، إلا أن الارتباك كان لا يزال يتربص بي لدرجة أردتُ معها الخلاص من تلعثم الكلمات وارتجاف الحب على جوارحي.

مع ذلك واصلتُ قائلاً:

- كنتُ أخشى عدم قدرتي على شرح أحاسيسي وما يجول بخاطري نحوكِ، لذلك أحضرت معي محامي الحب الأزلي، رسالة، تدافعُ عني في محكمتكِ قبل أن تعلني حكمكِ الذي لا يستند لأي قانون أو عرف سوى مشيئتكِ. ولأننا لا نطلب من القاضي الرحمة والشفقة فإنني سأطلب من كلمات هذه الرسالة أن تكون أكثر شجاعة منِّي كي لا تستسلم لعطرك وجمالك الساحر فتلفظ أنفاسها قتيلة كما صرتُ أنا ...أعتذر عن تطفلي يا زهرة، مع السلامة.

لم أنتظر أي كلمة من زهرة التي بقيت متسمرةً أمامي دون حراك. أدرت وجهي من حيث أتيت وانطلقت مغادرا، متحررا من أنفاسها، متحررا من هذه الطاغية التي حولتني لمستعمرةٍ لا تحملُ سوى أعلامها.

مضيتُ أتساءل مع قلبي هل ستنقذني زهرة من بقايا الأحلام المتكسرة بداخلي والتي تجذبني بكل عنف ووحشية إلى قاع مستقبل مظلم لا أمل فيه؟، هل ستنقذني من غياب أسباب الحياة، لتضع قطاري على سكة جديدة أمضي فيها بكل زهو وانتشاء؟ ربما كان الحب هو مشروعي الأخير الذي سينجح لينقذني من دوامة الإخفاق والانكسار. يا للعبة القدر !! هل أخفقت كل مشاريعي العملية والسياسية، وحتى علاقتي بالوطن، وينجح الحب وحده في رسم إشارة النصر في شريط سيرتي الذاتية .!!

***

بدت هذه الليلة شاحبة، مثقلة بغيوم الأمطار ورياح الشتاء. وضعتُ كوب الشاي السَّاخن على الطاولة بجانب الشرفة وجلست على أحد كراسيها الذي لا أعرف لم أفضله على بقية الكراسي؟

أخذت أفكر في الطريقة التي سأصيغ بها بحثي الصحفي الجديد الذي كنت متحمسا له بشدة ... غرقت في التفكير دون أن أجد خيط البداية. عصرتُ فكري باحثا عن كلمات أرسمها على الورقة البيضاء التي كانت أمامي ...وكأنني أركض وراء الأفكار لاصطيادها تارة، وتارة أخرى أضع لها كمينا بعد أن أتعبني اللهث وراءها.

عندما أُمسكُ بفكرة، أحيطها بكل ذراعي كي لا تهرب. حينها تظهر لي أجمل من أي امرأة قابلتها. ليس لها شَعر ولا نهدان، ولكنها جميلة مغرية. تغمزُ لي أن ننام معاً على الورق الأبيض إلى الأبد بعد أن يغطينا الحبر الأسود عن عيون المتطفلين... فيكون لها ما تريد.

رنَّ هاتفي فجأة، كان رقم المتصل غير معروف لدي. بعد كلمة "ألو" وصلني صوتٌ يحملُ معه عطرا أنثويا بالغ الإثارة، اجتاح مسامعي بكل عنف...

- ها قد اتصلتُ بك..

تلعثمتُ وأنا لازلتُ أتلذذ بمذاق العطر على همسات صوتها في الهاتف...

- زهرة؟!!

- جيد، كنتُ أخشى أن تكون في انتظار صوت فتاة أخرى كتبتَ لها نفس كلمات الشعر التي أهديتها لي .. رسالتك جميلة على فكرة.

- ومن لسواكِ كنتُ أكتبُ كل هذه الشهور؟..

- هل أعتبر نفسي محظوظة إذن؟..

- بل اعتبري نفسكِ طاغية .. طاغية احتلتْ عرش مشاعري وهمسات جوارحي، أنا أعيش منذ أيام أجمل وأحلى استبداد... استبدادكِ.

- لا أخفيك، أنتَ أيضا بدأت تستبدُّ بفكري. ثلاثة أيام منذ لقائنا وأنا أتردد في مهاتفتك.

- التردد هو أول الحب..

- أتعتقدُ ذلك؟

- نعم، أنا أيضاً كنتُ متردداً قبل أن أحدثكِ .. وها قد اجتزتُ عتبة الحب الأولى..

قطعتْ كلامي بسرعة قاسية، قائلةً دون مفاوضة:

- طارق، لو سمحت، سأعيدُ الاتصال بك في آخر المساء..إنهم ينادونني في البيت..

- حسناً.

- سعيدة لسماع صوتك يا فتى..

- وأنا كذلك، في انتظارك.

عند انتهاء المكالمة شعرتُ بكمٍّ غامض من الأحاسيس المتضاربة، كنتُ أطيرُ فرحا لسماع صوت زهرة، وفي الوقت نفسه محتاراً بسبب إنهائها المفاجئ للمكالمة. تساءلتُ إن كانت تريدني أن أعيش معلَّقا على هاتفها؟

لم أجبر نفسي حينها على طرد صورة زهرة من مخيلتي، لكني أمسكت بالورقة البيضاء التي كانت تنتظر معانقة قلمي باشتياق وبدأت أكتب بداية تقريري الصحفي باسترسال وكأن زهرة كانت محفزاً لي ولقلمي.

انتظرتُها ساعاتٍ طويلة .. بكل هواجسي الفوضوية، بكل آهات الانتظار على مشارف الحب. ليأتيني هاتفها أخيراً عند منتصف الليل..

- من أكون؟

- أنتِ لستِ في حاجة لهذه الأسئلة الوجودية معي، فقد خُلق وجودك بداخلي حتى قبل أن تكوني...

- هممم .. أنا في الحقيقة لا أفهم كلامك المتفلسف في الحب، لكنه يروقني. قل لي لم أنا؟

- لم أنتِ؟

- نعم، لماذا اخترتني أنا شريكة في مشاريعك للحب؟

- نحنُ لا نختار في الحب، الاختيار فعلٌ ديمقراطي والحب سلطان متجبر، ديكتاتوري لا يؤمن بالديمقراطية.

- يعني؟

- يعني أنني متورطٌ فيكِ وليس لي على الحب والقلب من رقيب. يقول محمود درويش :الحب مثل الموت، وعدٌ لا يرد ولا يزول ...

- يعجبكَ هذا الشاعر؟

- ترعرعتُ على كلماته وتقاسمتُ مآسيه في الحب والوطن. قولي لي، متى سأراكِ...؟

- متى تريدُ أنت؟!

- الآن.

- أنتَ سريع...

- نحنُ لا نمشي ببطء إلى الحب، إما نسقطُ فيه أو نهرول إليه

- أو نهرب منه..

- من القسوة أن تتحدثي عن الهروب من الحب في أول الحب..

- أرأيت .. أنتَ تسرع أكثر.

- لماذا...؟

- لأنكَ قلتَ أول الحب .. هل نحنُ حقاً في أول الحب...؟

- ما رأيكِ أنتِ؟

- لا يمكننا الحديث عن أول الحب .. كلُّ ما بيننا لحد الساعة لقاء خاطف ورسالة وبضع مكالمات هاتفية..

- ذاك أول الحب على مقياسي ..

- وهل لديكَ مقاييس في الحب؟

- أجل، أنتِ. المقياس الذي أقيسُ به حرارة الحب هو أنتِ.

- اسمع ..سنتفقُ أنه أول الحب .. ولكن سيلزمنا بناء جسور ثقة. علينا أن نلتقي أولاً وثانياً وعاشراً لنرى هل سيكون الحب حقيقياً أو أنه سيموت في أوله ..

- ما من حب يموت في أوله..

- أنت مخطئ. صديقك محمود درويش بنفسه قال في إحدى قصائده :أنا لا أريد من الحب سوى أيامه الأولى.

- أنتِ تقرئينَ لدرويش إذن؟ ..

- في الحقيقة قرأتُ له متأثرةً بحديثك عنه في رسالتك ..أنا فرنكفونية لا تستهويني الكتابات العربية ..

- أنا قومي عربي ..ولا أعرفُ إن كنتُ أستهويكِ.

- لا تخشى شيئاً. أنتَ تستهويني وإلاَّ لما قبلت بلقائك والحديث إليك .. وأنا أيضا أشعر بأول الحب معك ..

- حقاً..؟

- نعم حقاً ..سأتركك الآن. ورائي واجباتي الدراسية.

- سأردد سؤالي ..متى سأراكِ؟

- ما رأيكَ أن نلتقي غدا عند السادسة مساء، أكون حينها قد أكملتُ حصص دروسي ..؟

- أينَ؟

- أريد أن أغتنم الفرصة لأتجول على بعض المحلات برفقتك. لنلتقي إذن في أكدال ..مقهى أوليفيري ما رأيك؟

- المهم أن نلتقي..

- سنلتقي ..أعدك، أتركك الآن لدرويش لعلَّ كلماته تعذبكَ عوض صوتي كما قلت..

- لا عذاب يفوق عذاب صوتكِ عزيزتي ..عمتِ مساء..

- صباحكُ جميل يا فتى..

وانتهينا على ابتسامة .. وانتهى قلبي على أمل حبٍّ كبير لا يقتله سوى ولع انتظار لقائها يوم غد...

في مساء الغد، جاءتني زهرة بشعرها الأشقر وملامحها التي تدعو الناظر إليها إلى السُّكرِ بجمالها. كان كل شيء في عينيها يقول لي انظر إليّ، حتى الأحمر على شفتيها يغريني بالخلود بين أحضانها ...وعلى غفلة من عيني أو من قلبي، لا أدري، وأنا محتار كيف سأسلِّم على هذه الطاغية ... مددتُ يدي لكنها مدَّت وجهها.

ها هي تترصدُ قتلي بكل إصرار على أسوارها، ها هي أنفاسها تحاصرني بنسمات الحب لتُحيلني أسيراً، مشاعرُ الحب هي قيوده والأمل في حبٍ عنيف مزلزل هو المحراب الذي يُصلبُ عليه. احتضنتها كمن يدخل لدينٍ جديد، ربهُ الحب ورسوله هذه الشقراء.

منذ الدقائق الأولى للقائنا كان كل شيء قابلاً للاشتعال في دمي، عطرها، اللون الأحمر على شفتيها، نهداها اللذان لم أستطع لجمَ عيني من خطف نظرات مسروقة من أقاصيهما ...

جلسنا نشربُ القهوة وأنا أستجمعُ كل الكلمات التي نسجتها خيوطاً من الشعر فيما مضى، لأقرأها على مسامع زهرة دون جدوى.. أي ورطةٍ هذه..؟ كان فنجان القهوة الذي شربته على ضفاف أنوثة زهرة أحلى فنجان قهوة في حياتي، لدرجة أنني نسيتُ وضع قطعة السكر المعتادة. اختلت كل موازيني في الحياة وغدوت أسكرُ من لحظات الحب الأولى... لكنها أيقظت سكري فجأة قائلةً:

- نحنُ في حاجة لمد جسور ثقة.

أحسستُ أنها تدير علاقتنا كملف دبلوماسي يخضع لأساسيات القانون الدولي. تكبحُ مشاعري ولهفتي لها بدعوى ظروف الوضع الإقليمي والأمن القومي. تعقدُ في كل حالة توتر عاطفي اجتماعا طارئا لمجلس أمنها، تنزلُ عليَّ عقوباتها، تقطعُ عليَّ صوتها وعطرها وخصلات شعرها الأشقر.

أتمردُ على غيابها وقسوتها فتأتيني قراراتها القاتلة للحب تحتَ طائلة البند السابع.

طلبت مني أن أصحبها كي نتجول بين المحلات التجارية وهي تمسكُ بيدي كطفل تخشى عليه من الطريق، راقني الأمر وأنا أتحسَّسُ أمانا ورقةً في يديها.

تكررت لقاءاتنا بعد ذلك، كل يوم كنتُ ألتقي زهرة أمام المدرسة أو أمام بيتها في حي الرياض وأنا أتساءل إن كانت ستبقى وفية لحبي. طيلة حياتي لم أجد من هو أكثر وفاء من سيجارتي. السيجارة هي الوحيدة التي أعلم أنها لن تغادر أناملي إلى أنامل أخرى، ولن تجري إلى فم آخر بعد أن أشبعها فمي قبلات مشتعلة. قصة الحب الوحيدة التي تبدأ بنار وقبلة هي قصة المدخن والسيجارة.

"إينانا"

يومٌ يمضي وراء يوم ومركبي تتقاذفه أمواج الحياة والوطن من صخرةٍ إلى صخرة ...لا مياه في بحر الحياة، ليسَ هناك سوى الصَّخر يكسر عظامك دون أن يرسم على جلدك آثار الجراح...

مضت شهور. الشيء الوحيد الذي كان يملؤها سعادةً وعذوبة هي زهرة. تلك الماردة التي كبرت في داخلي كطاغية عشق، كسيفٍ يمزِّقُ كل أشلائي الداخلية ليحيلني إلى معسكر لا يحملُ سوى أعلامها ... إلى منطقة معزولة المشاعر إلاَّ من مشاعر حبِّها...

لم يمض يومٌ واحد من هذه الشهور دون أن ألتحفَ ملامح زهرة في المساء أو أتمايل على نغمات صوتها في الصباح. كنا كأروع حبيبين، لا نفترق إلا لنلتقي ... لا نمشي إلاَّ وكانت كحمامة تلتصق بذراعي، تعانقني بريشها الزاهي وعطرها الذي يصادر كل أنفاسي...

مشينا سوية في كل الشوارع، رقصنا على إيقاعات كل الملاهي ...سرقنا الزمن والقُبل والنظرات الحارقة واللمسات القاتلة ... كانت أيامي بها جميلة، عذبة كقطعة زمنٍ من الجنة... كم كانَ قلبي بحاجة إلى حب زهرة، وكم كانت شفتاي المرتعشتان تشتاقان إلى شفتيها كي تواصل الأمل في نسج الكلمات ... !

لكن الأشياء الجميلة لا تأتي دائما كاملة ... ينقصها دائما شيء ما كما في قصص الحب. الشهور السابقة تخللتها خصومات ولحظات عتاب اكتشفتُ خلالها أن زهرة تختلف عنِّي حدَّ التطرف ... هي بورجوازية، مادية، وجودية، تُحب الحياة الصَّاخبة والمرح والسهرات، تعشق الحياة السهلة الخالية من كل التعقيدات. لذلك هي تكرهُ الأدب والشعر والسياسة ولا تعترف بقضايا الوطن ولا بكل أولئك الذين استشهدوا أو انكسروا بسببه. هي لا تكترث أصلاً لقضايا الانتماء والهوية.. زهرة، لا تبالي بمعاناتي وآمالي التائهة، ولا حتى بفلسفتي في الحياة. تقولُ لي دائماً كن معتدلاً في كل شيء.

حقاً هي معتدلة في كل شيء، حتى في الحب. هي لا تلقي بنفسها في جنون العشق كما أفعلُ أنا. كنتُ أشعرُ دائما وكأنها تعيشُ معي حالة حب حتى إشعار آخر...

قلتُ لها ذلك اليوم عندما رأيتها مستغربة وهي تدخل شقتي أول مرة:

- أراكِ مستغربة!!

قالتْ:

- كنتُ أظن أنني سأجد شقتكَ تغوص في الفوضى وعدم الترتيب.

- سامحكِ الله.

- شقة مشاكس وغريب الأطوار مثلك لا بد وأن تعمَّها الفوضى.

- ربما لأنني أعيش فوضى مستبدة بداخلي ترفض الخروج.

طوقتني بذراعيها الجميلين والباردين لتحاصرني برقتها التي تُفشلُ فيَّ كل مقاومة على أسوارها، ثم قالت:

- وأنا؟ هل أعيش مع فوضاك أم خارجها؟

- أنتِ الآن كل أسباب الفوضى التي أعيشها يا جميلتي.

- أعشقكَ أنا...

كانت سعادتي بالغة عندما قفزتْ كلمة العشق على لسانها ذلك اليوم، ربما لأنني لم أسمعها منها بكل عفوية وصدق في لقاءاتنا السابقة.

- بيتكَ يغريني بشهية الرسم، هناك شيء ما فيه يجذبني إلى لغة الألوان... سأفكر في الإقامة عندك بعض الوقت وقد أعود مع حقائبي.

- أنتِ وحقائبك مرحبٌ بكم في قلبي قبل بيتي.

في الغد، عند عودتي من الجريدة في المساء ... ما أن فتحت باب شقتي حتى تسابقت إلى مسامعي أنغام" الدانوب الأزرق" لشتراوس. خفق قلبي مسرعاً بعد إيقانه أنَّ زهرة هنا، تنتظرنا، أنا وهو.

أغلقتُ الباب وتوجهتُ إلى غرفتي بعد أن لمحتُ ظلها من قاعة الاستقبال. وضعتُ محفظتي على مكتبي الصغير، وعلَّقتُ سترتي على المشجب. أضفت إليه بعض ملابس زهرة وجدتها مرمية على الأرض. أي فوضى هذه يا من تحدثينني عن النظام!

لم تعلم بوجودي في البيت بسبب صخب الموسيقى وانشغالها بالرسم. قصدتُ الصالون دون أن أحدث صوتا ووضعت كتفي على إطار الباب متمعنا في ملامح وجهها الساحر وهي ترسم بهدوء مثير...

كانت ترتدي وزرة تعرف أنها بيضاء اللون فقط من أزرارها لفرط اتساخها بألوان الصباغة ومسحوق الرصاص الذي تحب زهرة أن تنثره على لوحاتها وكأنها ترديها قتيلة بعد أن تفرغَ منها.

انتبهتُ لشعرها الذي أراه لأول مرة مصففاً نحو الأعلى. خمَّنتُ أنها فعلت ذلك كي لا يضايقها وهي غارقة في الرسم. استوقفتني جاذبيته التي أغرتني عندما رأيتها تخرج من باب المدرسة في ذلك اليوم الذي لا أنساه.

التفتتْ فجأة وهي تشعر بوجودي، وبابتسامة جميلة على وجهها صاحت متحدية صوت الموسيقى العالي:

- أتنتظر خلسةً إلي أم إلى لوحتي؟...

- أنا مغرم بكما معا.

نهضت عن كرسيها لتخفض صوت الموسيقى واتجهت نحوي كحمامة عذبة تمشي إلى صاحبها شوقا وحنينا. طبعتْ بغنج على خدي قبلة حارة طويلة أحسستُ معها أنه وقع رهينة لشفتيها، ثم قالت:

- انتظر، سأنزع وزرتي أولا فأنا أرغب بمعانقتك، اشتقتُ إليك.

أمسكتها من أسفل كتفها وأنا أنظر إلى عينيها اللَّتين أتعمَّد من مائهما كلما التقيتُ بها.

قلتُ:

- أريد أن أتسخ بصباغتك وألوانك، عانقيني فقد اشتقتُ إليك أنا أيضا...

ضمتني إلى صدرها بقوة حتى أحسستُ أن ضلوعي التحمت مع ضلوعها الدافئة، مشعرة قلبي بسكينة وأمان لم أعهدهما.

ما أجمل أن تفتح باب منزلك لتجد حضن يمامة جميلة كزهرة يمنحك كل أسباب الحياة.

- أكيد أنّك جائع يا فتى ...لقد أعددتُ لك أكلة لم تذقها قط في حياتك البائسة...

صاحتْ وهي تنام على كتفي معانقةً جسدي الذي انضم للرقص مع جسدها على أنغام شتراوس.

- لا أصدق أنكِ طباخة ماهرة!!

- لم أنتَ متأكد هكذا؟!

- كيف لفتاة بورجوازية تعيش وسط فريق من الخدم أن تجيد الطبخ؟، أنا أشك في أنكِ زرتِ مطبخكم أكثر من ثلاث مرات...

صاحت بنرفزتها المعهودة بعد أن عقدت حاجبيها وأبعدتْ جسدها عن أحضاني متجهة إلى المطبخ:

- ها قد بدأت مجددا محاضرة الفكر الطبقي...

تركتني وسط لوحاتها التي تشبهها وأنغام شتراوس المختنقة ثم عادت سريعا وهي تحمل إبريقا من القهوة وبعض قطع الحلوى التي اعتدتُ أن أشتريها من السوق الممتاز المجاور.

- أرأيتِ، فكري الطبقي كان صائبا. إبريق من القهوة ليس بوصفة مطبخية!!

قالت وبعض الخجل يعتري ملامحها:

- آسفة يا طارق ...أنت تعلم أن لا علاقة لي بالطبخ.

ثم سرعان ما قفزت ضحكتها المرحة على شفتيها الورديتين وهي تكمل كلامها:

- لكنني سأعوضك عن ذلك بأن أنجب لك ثكنة من الأطفال، تجعلك أسعد أب في الدنيا. أعدك بذلك .

- انفجرتُ ضحكا من دعابتها الرقيقة والجو المرح الذي تخلقه دائما من اللاشيء وتخيلتُ زهرة أمًّا تحمل رضيعا بحضنها يخطف مني ثدييها ليشبع جوفه من لبنها. تراه كيف يكون لبن زهرة؟ ... أبطعم الياسمين؟ هل يكون هو الآخر أشقر اللون بطعم الفراولة والعنب...؟

- منذ متى وأنتِ هنا... ؟

- منذ الصباح، الحادية عشرة صباحا بالتحديد. رافقتُ أبي للمطار حيت ذهب في رحلة عمل إلى إيطاليا. أحسستُ بوحدة قاتلة برحيله لذلك لجأتُ إلى هنا لتُؤنسني رائحتك في انتظار أن تحضر.

- إذن أنا فقط رجل بديل لغياب والدك؟

- يجب أن تكون فخورا لأنك الرجل الثاني في حياتي.

- ولم لا أكون الأول؟!

- الرجل الأول في حياة كل فتاة هو أبوها يا فتى.

- وما رأيكِ أنني أرفض هذه الفكرة؟ أرفض أن أكون رجلا ثانيا، أنا رجل نرجسي لا أرضى إلا بالمرتبة الأولى.

- لماذا تبحث دائما عن تصنيف نفسك في قوائم الآخرين؟

- ربما لأنني أعاني من أزمة ثقة.

- ثقة في النفس؟

- ثقة في الآخرين.

- لم أفهم... اشرح أكثر.

- أنا إنسان متطرف في كل شيء، إن أحببتكِ فهذا يعني أنني أحبك بكل جنون، بكل عنف وبلا مساومة. أن أحبكِ، هذا يعني أن أجعلك آلهتي التي أصلي في محرابها في كل ثانية، أن أجعل حبك ديني الوحيد دونه الكفر. تصبحين أنت الشمس والقمر والتاريخ والجغرافيا والأدب وكل الكون...
تصبحينَ أنتِ الأولى في كل شيء...
لذلك أطمع في أن أكون مالكَ قلبك الوحيد...

صمتت زهرة، لا أعلم إن كانت خلال الصمت تبحث عن كلمات لتجيبني أم لم تجد كلمات تجيبني بها؟، لكنها بحركة واحدة لجأت لصدري كطفل ضائع يبحث عن صدر أمه، حضنتُ رأسها وصدرها بقوة تاركاً أنفاسي تلهثُ وراء رائحة جسدها المتفجر أنوثة.

***

كنت واقفا أمام نافذة الصالون الفارغ من أي قطعة أثاث، أتأمل ليل الرباط المغري. تثيرني هذه المدينة عندما تلبس سواد الليل، تُظهر لي مفاتنها الليلية كحورية بحر من الصَّخر على مياه أبي رقراق وأمواج الأطلسي الثائرة. في الليل وحده تظهر لك كل الألوان بوضوح، الأحمر الناري على أضواء السيارات وإشارات المرور، الأخضر العشبي على لافتات الإشهار المتراقصة، الأصفر الشمسي الذي يضيء شرفات المنازل والأبنية. بل حتى الورد العنَّبي لا تخطئه العين على شفاه الفتيات الرباطيات الجميلات.

الليل وحده يعشق الألوان مثلي.

لم أكن أخشى الليل منذ صغري. على العكس، كان يمدني بطمأنينة وهدوء غريبين يعيدان لي الثقة في الحياة بعد أن يعرِّي ضوء النهار وجهها البائس. كان الليل يخفي لي دائما هذا الوجه القبيح ويضيء لي فقط مساحة صغيرة تكفيني لأعيش فيها بانتشاء. من يعتقد أن الليل مصدر خوف وعتمة لا يفهم أناقة الجغرافيا وسحرها. الليل هو ذاك الثوب الحريري المغري الذي تلبسه المدن استعدادا للنوم بين أحضاننا.

سمعت مشي خطىً سريعة ثم طرقا غليظا على الباب. لحظة صمت حائرة أوقفتني متسمِّرا في مكاني وأنا أتخيلُ ليالي الحي الجامعي عندما كانت تقرع أبوابنا أرجل رجال الأمن الغلاظ كي يقتادونا إلى أقبيتهم الباردة بعد أن يوسعونا ضربا بسبب أو بدونه.

صرخت من مكاني بعد أن تاه بي شريط الماضي وبعد أن سردتُ لائحة أسماء كل من يمكنهم طرق بابي بهذه الفوضى:

- شكون؟ !! شكون اللِّي على الباب؟

كانت راحتي بالغة عندما أجابني طفل متوسط العمر بصوت ليس بالغريب عليّ:

- أنا مروان ابن الجيران، من فضلك افتح الباب.

دفعني الفضول بسرعة نحو الباب لمعرفة ما يحمل لي هذا الطفل، لكن صوتا غريبا من بقايا الأمس كان يصيح بداخلي: تريث، إنه أحد مقالب رجال الأمن، إياك أن تتغابى !! لكنني لم أكترث وفتحت الباب.

اندفع نحوي الطفل مضطربا ولاهثا، صاح متحدثا وهو يغالب الدمع على وجهه:

- من فضلك يا عمي، أبي مريض جدا وأمي تطلب منك أن تساعدنا على نقله إلى المستشفى، ليس هناك أحد في البيت ليساعدنا...

أعرف هذا الطفل. إنه ابن الجيران، يسكن في الشقة المقابلة. التقيته في فرص نادرة على الدرج أو في باب العمارة محاطا بوالديه. دون كثير تفكير، قصدت دولابي الصغير ونزعت منه بذلتي لألبسها وأدخلت رجليّ في زوج حذائي دون أن أهتم بربط خيوطه، ثم أمسكت بيد الطفل ليرافقني.

ترك باب شقتهم مفتوحا. ما إن دفعته حتى صاحت في وجهي امرأة شابة تملَّك الهلع ملامحها...

- سي طارق أنجدني، زوجي مغمى عليه وأنا لا أعرف سياقة سيارتنا لأخذه إلى المستشفى، لذلك طلبت منك المساعدة.

- حسنا، حسنا ...أين هو؟

تبعتها مسرعا في اتجاه غرفة مضاءة في آخر يمين الشقة وشفتاي تتمتمان كيف عرفت هذه السيدة اسمي؟ أنا لا أحدث أحدا في هذه العمارة؟!!

على السرير، كان جسد الزوج ملقى بغير عناية وكأنه سقط فجأة غائبا عن الوعي. أمسكتُ بيده اليمنى التي كانت باردة كالصقيع لألُفها حول عنقي محاولا أن أحمله بشكل رأسي وهو على قدميه ...واتجهت به إلى الباب. التفت إلى السيدة لأذكرها بحمل أوراق السيارة والمفاتيح، لكني لمحت أنها لم تنس ذلك وأن الهلع الذي كان يتملكها قبل قليل قد تحول إلى هدوء وثبات لدرجة أنها أطفأت النور وأغلقت الباب بإحكام. ساعدتني بعد ذلك على حمل زوجها من الدرج حتى السيارة. حينها طلبت من ابنها أن يجلس بجانبي فيما جلست هي بالخلف ممددة جسد زوجها بجانبها وهي تمسح بكل رقة العرق الذي يتصبب من جبينه.

- إنها بنزين، يمكنك أن تنطلق بسرعة دون أن تكترث.

سمعتها تصيح من الخلف وأنا مرتبك قليلا لأنني لم أتورط في قيادة سيارة منذ زمن. نزعت الفرامل اليدوية، ضغطت على القابض وضبطت علبة السرعة ثم دست البنزين لتندفع السيارة مسرعة بعد أن ثبتُّ المقود على المسار الصحيح. اعترتني نشوة حماسة بعد أن علمت أنني لم أنس دروس السياقة !! لكن هذه الحماسة أطفأها السؤال الذي حيرني عندما قابلت هذه المرأة. كيف عرفت اسمي؟ ...! آه من النساء، إنهنَّ أكبر تهديد لأمني القومي ...

***

كم أكره المستشفيات ورائحتها وأشفق على من يمتهن الطب والتمريض. لا أستوعب كيف يعيشون على الألم والدماء دون أن يؤثر ذلك في توازنهم النفسي. كنت أقول دائما إنهم من طينة بشرية غريبة. أخذ فكري يجوب ذاكرتي متذكرا كل معارفي من الأطباء والممرضين. في تلك اللحظة، خرجت جارتي من الغرفة التي دخلت إليها منذ ساعة وربع مع زوجها ليتلقى العناية المستعجلة. بدت عليها علامات الارتياح واسترجعت بشرتها لونها الإنساني الطبيعي.

- سي طارق، أعتذر على إزعاجك معنا هذه الليلة.

قالت وهي تجلس باستسلام إلى جانبي.

- العفو، هذا واجب الجار. كيف حاله الآن؟ وماذا به؟
- عمر الله يهديه، نسي أخذ حقنة الأنسولين بالأمس، واليوم تعرض لنوبة حادة جراء ارتفاع نسبة السكر في الدم أفقدته الوعي. الحمد لله أنها أتت سليمة...
- الحمد لله على كل حال. مرض السكري يحتاج للعناية والمراقبة المستمرة. إن كان لا يكترث ويتجاهل دواءه فمن الأفضل أن تتابعي معه العلاج بنفسك سيدتي...
- أنا اسمي فاطمة.

نظرت إليَّ بابتسامة لطيفة أربكتني، لم أعرف ماذا أقول حينها. فكرت أن أجيبها : تشرفت بمعرفتك، لكن الظرف لم يكن لائقا

فغلبني الصمت المحرج. سمعتها تكمل بعد أن مسَّدت وجهها بيديها الرقيقتين:

- الطبيب أمرنا بالانصراف. فلقد أعطى لعمر مسكِّنا لن يستيقظ بعده حتى الغد، ومروان عليه أن يذهب إلى المدرسة صباح الغد، كما أنك يا سي طارق تبدو منهكا ...
- لا...لا إن كان ضروريا أن نبقى فلا مشكلة لدي
- ليس ضروريا، أنا سآتي في الصباح لأخذه إن سمح الطبيب بذلك

اتجهتْ جارتي فاطمة إلى ابنها الذي كان نائما على المقعد المقابل. طبعت على خده قبلة ناعمة بعد أن صفَّفت شعره الرطب، ثم أسقطت قطعة الثوب التي كانت تغطي نصف رأسها ليظهر شعرها الأسود جذابا رغم سوء تصفيفه. غطت طفلها ثم حملته إلى صدرها.

قطعت عليَّ هذا المشهد الأمومي بحركة من رأسها كي نغادر. نهضتُ متتبعا خطاها حتى مكان السيارة وأنا أفكر في أمي وأحوالها. اجتاحتني موجة حارقة من الاشتياق لحضن الأم الذي كان يلتقطني وأنا نائم بكل زوايا البيت ليعيدني إلى سريري. لم يوقف هذا الاشتياق سوى صوت أمي بعد أن هاتفتها عند عودتي ودعواتها لي بالتوفيق والسداد.

***

تراكم الخلافات وتباعد وجهات النظر في علاقتي مع زهرة دفعني إلى محاولة إنقاذ قصة الحب هذه بكل ما أملك من أمل وإصرار. لا يمكن لي أن أتخيل أي نهاية لعلاقتي مع زهرة، فهي آخر مشاريع الحب في بناء قصرٍ وردي على شاطئ أمواج الحياة القاسية.

هذه الليلة، دعوتُ زهرة للعشاء في مطعم" لو كراند كومبتوار" آملاً في أن تخيط رومانسية المكان ثوباً جديدا لحبنا الذي أصابه المرض العضال. حضرت زهرة متأخرة. كان حديثنا يقتصر على مواضيع بسيطة بدون نكهةٍ رومانسية، حتّى أنها لم تهتم لموسيقى الفالس التي كانت تطرب مسامع العشاق بالمطعم. أنا وزهرة كنا أبعد من عاشقين وأقرب لعاشقين سابقاً. لم تنتظر طويلاً حتى فجرتْ لقاءنا بكل برود قائلةً:

- عليَّ أن أغادر يا طارق.

- تغادرين؟ لم؟

- منير، زميلي في المدرسة يقيمُ الليلة حفلة عيد ميلاده وعليَّ أن أحضر.

- ولكنني دعوتكِ الليلة للعشاء .. وأردتُ أن نرقص معاً على موسيقى الفالس بهذا المطعم.

- أنا آسفة يا طارق .. سنعوضها مرةً أخرى.

- ولماذا لا تعوضينها لصديقكِ هذا مرةً أخرى .. وتبقينَ معي، نرقصُ معاً ..أنا أشتهي الرقصَ إلى جانبك هذه الليلة.

- آسفة يا طارق ..أصدقائي ينتظرونني.

غادرت زهرة المطعم بعد أن طبعتْ قُبلةً يتيمة وباردة على خدي ..قتلتْ بكل قسوة آمالي في الرقص إلى جانبها ورغبتي في أن يجمع جسدينا إيقاع موسيقي واحد عسانا نذوب فيه معاً.. غادرت زهرة دون اكتراث. ذهبت لصديقها، لتطفئ شمع سنواته الماضية بكل فرح، بعض أن أطفأت شمع مشاعر الحب الضائعة في قلبي بكل أسى...

لجأتُ إلى هاتفي، طبعتُ على ملمسه رقماً أحفظه عن ظهر قلب منذ أيام الجامعة .. إنه رقم ليلى. ليلى، الفتاة الوحيدة التي لا تُغير رقمها مع تغير الفصول كبقية بنات حواء.

- ألو..

- لازلتِ صاحية؟

- لازالت الساعة العاشرة ليلاً ..أنا وأنت نستيقظ في الليل ولا ننامُ فيه يا عزيزي. أينَ أنت؟ أسمعُ ضجةً حولك وصوت موسيقى..

- أنا في مطعم لوكراند كومبتوار ..

لم تسألني ليلى إن كنتُ لوحدي أو برفقة أحدٍ ما ..ليلى دائماً تهتمُ بأحوالي دون أن تشغل بالها بالأسئلة التافهة ومحاولة ترصدي.

- أشعرُ بكَ حزيناً ..ما بك؟

- حزني ينتقلُ حتى عبر أثير الهاتف إذن!! ..

- أنا من تجيدُ استقبال تقاسيم تنهداتك وفك رموزها..

- ماذا تفعلين الآن؟..

- أقرأ رواية جديدة في انتظار عودة أبي لنتعشى سويةً..

- ما رأيك أن تنضمي إليَّ في المطعم..؟

- تدعوني للعشاء معك..

- بل أدعوكِ للرقص معي ..هذه الليلة أنغام الفالس تؤثث المكان في هذا المطعم.

- لو كانت دعوة عشاء فقط ربما كنتُ سأفاوضك في الأمر .. لكن بما أنها دعوة للرقص معك فأنا لا أملكُ أن أقاوم..

- إذن؟

- نصفُ ساعة وأكون عندك..

- حسناً.

نصفُ ساعة، أقل بدقائق قليلة، كانت ليلى واقفة أمامي بوجهها الغجري الجميل وقد لفَّ جسدها ثوب سهرة أحمر اللون يفيضُ أنوثةً وإثارة.

تمتمت شفتيها قبل أن تعانقني بتحية "السلام" وهي تعلمُ أن ثوبها الأحمر قد سبقها في إعلان "الحرب" على حواسي الرجولية. يا لها من خبيثة!!

قرأتْ عليَّ السلام..

صاح قلبي المعتق بالغرام...

متى كان الأحمر على جسد المرأة .. راية سلام .. ؟

- ستظلينَ واقفة؟، اجلسي..

- أنا أتيتُ للرقص معك ..هيا انهض..

خطفتني يداها من الكرسي الذي أجلس عليه ودفعتني إلى المكان المخصص للرقص. بدأت ترقص أمامي كفراشة حمراء تلعبُ بأجنحتها الرقيقة انتشاءً بأنغام الموسيقى وبحضورها معي. تبتعدُ عني تارةً بخطواتٍ وحركاتٍ مدروسة وتقتربُ مني تارة أخرى لتلف يديها الجميلتين حول ظهري دافعة بنهديها العامرين صدري النحيل..

كانت أنفاسها العطرة تغتال فيَّ كل محاولة لتتبع إيقاع الموسيقى. سنين طويلة وأنا أحفظ عن ظهر قلب تضاريس جسد ليلى، تموجاتِ خصرها وهوية ساقيها وكل شيء فيها ..لكنني في كل مرة ترقصُ أمامي أشعرُ بأنني تلميذ فاشل في مدرسة إغرائها. أرسبُ بسهولة في امتحانات المقاومة والاستهتار بأنوثتها..

قالت وهي تجلس على الكرسي المقابل بعد أن أنهينا، مؤقتاً حسب قولها، حصة الرقص وأنفاسنا تكاد تنقطع..

-كنتُ في حاجة لأرقص معك ..فبدونك قلبي لا يدرك إيقاعات الموسيقى .. لذلك لن تجدَ من هو أصدق منِّي للرقص معك.

أنهت جملتها الأخيرة بغمزةٍ خفيفة من عينها اليسرى .. ترى، هل عرفت ليلى أنني كنتُ برفقة زهرة قبل أن تحضر؟

هل علمت أن زهرة رفضتْ أن تقاسمني الرقص على أنغام الفالس، لذلك أسرعتْ لإعطائي درساً في الوفاء للجسد الذي نشاركه الرقص كما فِعلَ الحب؟..

وفاء ليلى سيجعلها ترفض أن تتركني وحيداً هذه الليلة كي لا يتملكني الحزن لأسباب كثيرة هي تشعرُ بها دون أن تسأل ودون أن تتوقف عندها. لذلك رافقتني هي وثوبها الأحمر إلى شقتي كي أُلحدَ نفسي في خنادقها التي ألجأ إليها هرباً من قذائف الحب الطائشة ورصاصاته القاتلة.

جلستْ بسُمرتها الغجريــة..
حلَّت عليه كبدايةِ ليلٍ تـــائهٍ
لا يعرفُ دروب السمـــــاءْ
كذكر طاووس يختال بريشهِ
في أول يومٍ بعد فصلِ الشتـــاءْ..
غسل عينيهِ بملامحِ وجهها النـــبي

وحقول الألغام المرابطةِ على صدرها المَسبِي
في انتظار إشارة الانفجار..
قلبهُ لم ينتظر إشارة الانفجار
تَشظَّى كجندي مجهول إلى آلاف القُبلِ
وساحات حربٍ ودمـــارْ..
يصيحُ مهزوماً بهتافٍ قديـم
لا أريد سوى هذه السمـــــراء..
سمرائي.. هذه السمــراء.
ما عادتْ تغريهِ البيضـــاواتْ
ولا الشقراوات سيداتُ الذهب السَّرابْ..
ولا كلِّ نساءِ الألوان..
استحالَ ككلِ الشعوبِ المهزومةِ
إلى مستعمرةٍ سمـــراءْ
ترفعُ أعلام الغـجرِ
والشَّعرِ المغسولِ برائحة المطرِ
هو .. يجلسُ
يجلسُ هو .. كعابدٍ .. ناسكٍ بين شفتيها
متساقطٍ على أنفاسها كغيوم الضبابْ
بقلبٍ صدئ .. موصدٍ
يعيشُ حظرَ تجولٍ على الكعوب العالية
والتنورات
والخصور
وأزواجِ النهود
وحوضِ النبيذ والزَّبدْ

قالت: ما عدتُ أحتملُ أن نلتقي ونفترقْ
أريدُ أن نبقى معاً
كزوجِ نورسٍ ..يعشّشُ في مرسىً قديمْ
قال: فلنتزوج إذن.
قالت : حسناً .. غداً
غدا نلتقي عند الكوخ المهجور
ونعلنُ زواجنا باسم كل السمفونياتْ
ورقصات الغجرْ
قال : وماذا عن الشهود ؟
قالت : ومن كان شاهداً على حبنا منذ البدايةِ
سوى هذه السنونواتْ
وورود هذه الحديقة الشاردةْ
وهذا القمر الأسير المعلَّق في كبدِ السمـــــاءْ
قال: وأهلي وأهلكِ ؟
وأصدقاؤنا..
وخِرافُ جدي التي اختبأنا وراءها
ونحنُ نمارسُ الحبَ بكل ارتباك
قالتْ : أنا لا أهلَ لي سواك..
لا تجعل من حبنا مسرحية
كي تنجح لابد لها من جمهور..
وإضاءة وتصفيق وقضية
فلنغرق في العشق ..
واترك لربكَ البقية..
اترك لهُ البقية..

- إلامَ تنظر؟

- إلى الطيور .. أنا أحسدُ الطيور المهاجرة يا ليلى، أحسدُ قدرتها على قطع كل تلك المسافات الطويلة غير آبهة بحدود الأوطان ولا بسيل الذكريات التي عاشتها في مواطنها السابقة. تطلقُ أجنحتها للرياح مغيرةً وجهتها حسب الفصول، أعشقُ تجاوزها لفكرة "العش" و"الوطن". لماذا يا ليلى لا تؤمن الطيور المهاجرة بفكرة الأعشاش والأوطان؟

لم تُجبني ليلى، كانت تنظر إليَّ بعينين نصف دامعتين، يخترقني بصرها بحدة كضوء يمر وسط الزجاج دون أن يكسره .. قطعتُ تأملها قائلاً:

- ما بكِ؟

أجابتني بصوت مختنق:

- ألن تتغلب على فكرة "الهجرة" و"المغادرة"التي تتملككَ دائما يا طارق؟

- لا أستطيع يا ليلى .. لا أستطيع. فكرة الوطن والاستقرار بالأمكنة تتبعها فكرة الإنجازات. ماذا أنجزتُ في حياتي يا ليلى؟ ..لا شيء. كل أحلامي تبعثرت كأوراق خريف رقصتْ بها الرياح .. لذلك فأنا لا وطن لي .. لا وطن لي.

- ليس ذنبنا أننا حلمنا يا طارق، ذنبنا أننا نعيش في وطن لا يؤمن بالأحلام. وطنٌ كان يتمنى أن يصادر الحق في النوم فقط كي لا نحلم.

وقفت ليلى بجانبي على الشُّرفة. شَتتتْ نظرها على السيارات وأوجه المارة بالشارع ثم نظرت إلى عيني بلطفٍ قائلةً:

- لملم جراحك كما فعلتُ أنا يا طارق كي تستطيع إكمال حياتك بسلام.

قبلَ أن أجيبها قطعتْ صدري تنهدات عميقة.

- أشعرُ بندم كبير أنني قرأتُ في أيام الثانوية عن شخص اسمه غيفارا. لقد أربكَ هذا الرجل معادلتي في الحياة، جعلني أعيشُ أحلاماً طوباوية. آمنتُ بتغيير العالم والثورة على الظلم والاستغلال، عشتُ معه أحلامه التي لا تعرفُ حدوداً، لكنني أخفقت، أخفقت يا ليلى.

- لستَ وحدكَ يا طارق .. كلنا أخفقنا. كلنا بنينا وطناً جميلا أيام الجامعة متناسين أن هناك وطنا ظالما وقاسيا في انتظارنا خارج أسوارها. الاشتراكية والثورة العربية التي آمنا بها يا عزيزي كانت وصفة طبية صالحة فقط داخل أسوار الجامعة، هذا الوطن له أحلام أخرى .. ليست على مقاسنا.

أحسستُ بليلى تجترُّ كلماتها الأخيرة بمرارة، جعلتني أخجل من نثري لكآبتي عليها هذا المساء، لأُغرقها معي في صمتٍ رهيب لا يقطعه إلا صوت ولاعة السجائر التي كانت تحرق صدرينا بكل شراسة.

"كرونوس"

كل ما كان يحير فكري في تلك اللحظات التي كنتُ أقطع فيها الطريق إلى شقتي من مقر الجريدة هو موضوع إنجاب الأطفال في هذا العالم الملعون. كيف يتخذ الرجل والمرأة قرار الإنجاب؟، كيف يستطيعان إنجاب طفل في عالم غير مستقر، متعفِّن لا يمنح حياةً كريمة للإنسان؟

نحن ننجب الأطفال مع علمنا أن هذه الدنيا فيها من الألم والحزن ما يفيض على الجميع. نعطيهم الأسماء التي نريدها دون مشورتهم، نُدرسهم ما نريد، نعلمهم اللغة والدين والتاريخ الذي نريد، نفرض عليهم من أوطاننا وحدودنا وحكامنا وأحزابنا وأعيادنا الوطنية ما نريد. نفرض عليهم كل شيء !! ...لقد فكرتُ حينها أن الإنجاب هو أكبر فعل سادي يقوم به البشر وهم في غاية المتعة والفرح...

مررت بجانب السوق الممتاز الصغير المجاور لشقتي فتذكرت أني أحتاج لبعض قطع الخبز والبيض الذي فرغت منه ثلاجتي لأيام، وهو الذي أعتمدُ عليه غالبا في أكلاتي الجاهزة لسرعة إعداده وضيق وقتي.

أخذتُ ما كنت بحاجة إليه من رفوف المتجر وقصدت المكان المخصص للأداء. فجأة لمحت عيناي امرأة في الثلاثينيات من عمرها، تجر بأصابع يدها طفلا بالكاد يقوى على المشي

بجانبها. لم تكن تقاسيمها، سمرة بشرتها وعيناها السوداويتان، بغريبة عني. أمعقول أن تكون هذه نرجس؟! ، بطلة قصة الحب العظيمة التي جمعتها بصديقي نجيب لتتركه بعد أن أخفقت كل مشاريعهم في الزواج !!

وقفتْ أمامي دون أن تبالي بانشغالي في تقاسيم وجهها التي منحتني تذكرة بلا عودة إلى ذكريات أيامٍ جمعتنا أسراباً لتفرقنا فرادى:

- أمازلت تعيش على الخبز والبيض كما صديقك نجيب يا طارق؟

- نرجس؟ أليس كذلك؟

- أتغيرت لدرجة أنك لم تعرفني!!

نعم إنها نرجس، أو عبلة كما كان يسميها الطلبة في الجامعة إيحاء بارتباطها بعنتر الذي لم يكن سوى صديقي نجيب. تغيرت نرجس، أصبحت أماً لطفل له ثلاث سنوات وزوجة تظهر على ملامحها انشغالات المنزل وحيرة ما يجب أن تُعدَّه لزوجها على مائدة العشاء. كيف استطاعت أن تنسى نجيب بهذه السهولة؟، لقد افترقا منذ ثلاث سنوات، وعمر طفلها ثلاث سنوات أيضا. إنّه طفلُ الفِراق!!

هل كان اسم نجيب مكتوباً بِقلم الرصاص على صفحات نرجس حتى تمسحه بهذه السهولة وتكتب فوقه بسرعة اسم زوجها وأب طفل الفِراق؟

لم تسألني نرجس عن أحوال نجيب إطلاقا، وفي المرات القليلة التي ذكرت اسمه فيها كانت تذكره في سياق الماضي وكأنه أصبح شهيد الذاكرة وقتيل النسيان.

صعدتُ إلى شقتي وانهمكتُ بسرعة في إعداد البيض المقلي والشاي. لم يتبق لي سوى ساعتين عن الحفل. تذكرت سخرية نرجس الثقيلة حول الخبز والبيض. لا أعرف إن كانت موجهة لي أم لنجيب؟ نرجس لا تنتمي لعالمنا، وزوجها يطعمها أفضل بذلك بكثير. ربما كان ذلك أحد أسباب فراقها مع نجيب.

بعد أن أطفأتُ جوعي بالبيض المقلي والشاي، فتحتُ دولابي الصغير موهما نفسي أنني سأجد بذلة جميلة وسط ثلاثة بدلات سوداء أملكها منذ عام الفيل لأرتديها في حفل الليلة. لم أتعب في الاختيار، فاللون واحد والشكل واحد لكن هذه المرة قررتُ وضع ربطة العنق على الرغم من عدم إيماني بهذه الشكليات. فما معنى أن يربط الرجال أعناقهم برباط فوق قمصانهم؟!

لم أسمع طوال حياتي إجابة منطقية على هذا السؤال...

وأنا منهمك في إعداد نفسي لتكون أنيقة بما يكفي، اتصل بي مدير الجريدة ليؤكد على حضوري هذه الليلة وألا أتهرب من دعوته ككل مرة ... شعرتُ بسعادة غريبة لاهتمام المدير بي لدرجة أنه أقام حفلا خصيصاً لنجاح التحقيق الصحفي الذي قمتُ به مؤخراً. أسرعتُ بارتداء ملابسي بعد ذلك وغادرت البيت.

أوصلتني سيارة الأجرة إلى مقدمة شارع النخيل بحي الرياض. كانت الأضواء الزاهية تتراقص حول قاعة الحفلات القابعة بآخر الشارع ومجموعة من الرجال مرتدين البدلات الأنيقة يتوافدون على باب القاعة بعد نزولهم من سيارات ألمانية وفرنسية فارهة ونساء حسناوات يلتصقنَ بأذرعهم اليمنى.

ظللتُ واقفا في المكان الذي نزلتُ فيه من السيارة وأنا أشاور نفسي بالذهاب إلى الحفل أو الرجوع إلى البيت. لا أحب الحفلات الصاخبة التي تعج بأشباه الرجال وبالنساء اللواتي يرتدين الملابس المثيرة والباهظة الثمن في جو يملؤه التَّصنع والتشبه بالأرستقراطية.

هرب ذهني في تفكيره إلى مكالمة المدير وإلحاحه عليّ بالحضور. خطوتُ مسرعا نحو باب القاعة وكأني أتدارك الوقت الذي فاتني وأنا أقف على الرصيف مفكراً. تجاوزتُ الباب الذي كان يحرسه رجلان من الأمن الخاص بعد أن لمحت نظراتهم الفاحصة لي. تخيلتُ أنهم مستغربون ربما من غياب امرأة حسناء تمسك ذراعي مرافقة لي في هذا الحفل. قلتُ مع نفسي : شكليات فارغة.

من عتبة الباب كنتُ أسمع أصواتا صاخبة وضجة عارمة تختلطُ مع أنغام موسيقى الطرب الأندلسي التي كانت تؤثث الحفل. لمحني مدير الجريدة وهو وسط مجموعة من معارفه يتبادلون الحديث، كان يبدو أنهم شخصيات كبيرة سناً ومركزاً. وقفتُ مرتبكا وأنا لا أعرف ما عليَّ فعله عندما رأيت المدير يترك

أصدقاءه قادما نحوي وهو يرسم ابتسامة عريضة على وجهه تظهر لي من بعيد رغم اختناق القاعة بدخان السجائر والأضواء المتراقصة.

- إمَّا أن تأتي متأخرا أو لا تأتي، ما قصتك يا طارق؟
- المهم أني أتيت سيدي المدير...
- نعم، المهم أنك أتيت، فأنا لا أقبل أن يمضي هذا الحفل دون حضور أبرع صحفي عندي في الجريدة.
- العفو سيدي المدير، هذا شرف لي.
- هيا معي أعرفك على بعض أصدقائي.

أمسكَ بي المدير من يدي كطفل صغير سيقطع به الطريق ومضى متجاوزا الطاولات التي جلسَ عليها الحضور الذي انغمس في الأحاديث وسماع الموسيقى الأندلسية. عندما وصل إلى مجموعة من الرجال يبدو أنهم معارفه، صاح قائلاً:

- أيها السادة المحترمون أعرفكم على بطل الحفل وأبرع الصحفيين بجريدتي، طارق ولد الخيل...

صاح أصدقاء المدير بأدب محدود وابتسامة يسهل معرفة أنها ابتسامة واجب ليس إلاَّ:

- أهلا وسهلاً...
- تشرفت بمعرفتكم أيها السادة

أصبح المدير يقدم لي كل شخص باسمه ومنصبه، لم أكن مخطئا فكلهم شخصيات نافذة والبعض منهم معروف حتى لدى العامة.

صاح أحدهم ساخراً من اسمي:

- هل أنتَ فعلا ولد الخيل أم لهذا الاسم قصة ما؟

- والله طرحت نفس السؤال على والدي، فذهب عند جدي طالبا الإجابة، فما كان من جدي إلاَّ أن ذهب بدوره عند والده في الآخرة. ومنذ ذاك الحين ونحن ننتظر الجواب ...

صاح الجميع ضاحكا في الوقت الذي لمحتُ فيه عزيز يمر بجانبي فأمسكته من يده قائلا:

- أرجوك أبعدني عن هؤلاء...

فصاح عزيز ممثلا الدور الذي طلبته منه:

- أينَ أنت يا طارق؟ ... أريد أن أريك شيئاً

قلتُ حينها لعزيز بعد أن استأذنتُ المدير ومعارفه بالانصراف:

- يا لهم من رجال ثقال يصطنعون كل شيء...

- أطلق سريرتك يا طارق، لا أعرف سبب كرهك للحفلات وأجواء البهجة الراقية ... متى ستغادر فكرة الصراع الطبقي الذي يعشش في فكرك منذ الجامعة...

- أنت أيضا تكره إيماني بالصراع الطبقي!!!

- من الآخر الذي يكرهه؟ ... لا أظنها ليلى، فهي مجنونة مثلك بالصراع الطبقي والاشتراكية...

- إنها زهرة

- المسكينة، كان الله في عونها

- صحيح، ألم تعد تؤمن بالاشتراكية يا عزيز؟!

- متى ستتعلم يا طارق أن على الإنسان أن يؤمنَ بمصلحته الخاصة وظروف عيشه، كفاك من تلكَ الإيديولوجيات التي أضعنا من أجلها سنوات الشباب. ماذا أعطتكَ الاشتراكية والقومية العربية أنت وليلى ونجيب وفيصل؟...

تعال يا طارق سأعرفك على زوجتي منار...

- أنتَ أيضا حضرتَ إلى الحفل وزوجتك تمسكُ بذراعك اليمنى؟...!!

- ماذا، لم أفهمك يا طارق؟

- لا...لا لا عليك. لم أقل شيئا

وقفنا أمام طاولة جلس عليها ثلاثة أشخاص، سعيد ومريم زملاء لنا في الجريدة وامرأة ثالثة فائقة الجمال لم أعرفها. خمَّنتُ مع نفسي أنها زوجة عزيز...

صاح عزيز:

- هذه زوجتي منار يا طارق ...أما سعيد ومريم فأنت تعرفهما

مددتُ يدي إلى زوجة عزيز، منار، كي أسلِّم عليها وقد سبقتني عيناي إلى ذلك بعد أن أثارتهما رقة وعذوبة هذه المتجبرة بجمالها...مدَّت يدها هي الأخرى بعفوية محسوبة لتحيي يدي الممدودة إليها. أرسلتْ لي مع نظراتها الثاقبة ثلاث كلمات من فمها المسجون بشفتين حمراوين كخمر فرنسي عتيق.

- أهلا وسهلا سي طارق...

لم أشعر بما يجري حينها لكن سمعتُ مريم تقاطعنا:

- كيف حالك يا طارق؟ لم نكن نظن أنَّك ستأتي...

صاح عزيز:

- أرأيتْ؟ لقد أصبح الجميع يحفظ عاداتك القبيحة.

جلستُ على المقعد الذي يتوسط مريم ومنار متجاهلا أن يكون مقعد عزيز الذي ذهب للجلوس بجانب زوجته من الجانب الأخر.

- لم أكن أعلم أن ذوقك رفيع لدرجة أن تكون لك زوجة بكل هذا الحُسن والجمال الفاتن. أرى أن ذوقك تحسَّن منذ أيام الجامعة.

صاحتْ مريم قائلةً:

- إن منار تحكي لنا عن قصة زواجها بعزيز يا طارق.

كانت منار تحكي عن أول مرة التقت فيها عزيز والسعادة تتدفق علينا من عينيها أكثر مما تدفقت من شفتيها الورديتين:

- كان أجمل الأيام التي عشتها، ذات صباح أربعاء، الأول من أبريل عندما قصدتُ مقر الجريدة التي يعمل بها عزيز بحثا عن نسخة قديمة لجريدتهم كانت قد تطرقت لموضوع أُجري عليه بحث مدرسي. كنتُ حينها مراهقة في بداية الثانوية يملؤني الحماس والاندفاع. قال لي عزيز فيما بعد إنه كان حديث التعيين بالجريدة .
شاءت الصدف أن يوجهني كل موظفي الجريدة إلى عزيز كي أجد ما أبحث عنه وكأن القدر ساقني كي أعثر على الحب الذي سيغمرني بكل أسباب الحياة والسعادة.

توقفت منار للحظة بعد أن لمس عزيز يدها اليسرى بأنامله السمراء وهو ينظر إلى عينيها ممتنا لما قالته.

أكيد دار بينهما حديث لم نستطع فك رموزه ولغته ...لا أعرف لماذا طأطأتُ رأسي في تلك اللحظة وأنا أشعر بخليط من المشاعر المتدافعة والمتناقضة. أأنا سعيد لرؤية قصة حبٍ جميلة كهذه؟، أأنا سعيد لعزيز أم أحسده على هذه القديسة التي لا تعرف حياتها رجلاً سواه؟ .هل كنتُ أتمنى أن أخطفها منه؟ ..يا للحماقة!!

أكملت منار بعد شهقة تلت جرعات صمت النظرات التي تبادلتها مع زوجها.

- دخلتُ إلى مكتبه. تصوروا أنني وجدته نائماً في إغفاءة واضعاً خده على يده اليمنى التي تنوء بثقل رأسه فتتمايل يمنة ويسرة. لم أستطع فعل أي شيء. لم أحبذ فكرة أن أوقظه. لم أرد أن أبدو مزعجة ومتطفلة ...فجأة وجدتني أتمعنُ وجهه الطفولي البريء الذي يتدفق عذوبة على الرغم من ملامحه النائمة. استحليتُ الأمر وشعرت بصدق أنني أغرمتُ بهذا الرجل وبدأتُ أضحك على فكرة أن أغرم برجل نائم في أول لقاء، أنا التي كنتُ أنتظر حباً من النظرة الأولى.

فجأة فتح عينيه ليجدني أبتسم. ارتبك ولم يدر ما يجري حوله ولا ما يقول ...لكنه أظهر نبلاً كبيراً عندما أصر على مساعدتي رغم تعبه.

صاح عزيز مقاطعا منار:

- تعبي تحول إلى حيوية وانتعاش مفرط عندما غادرت منار مكتبي وصورتها لم تغادر عيني وقلبي. حينها أدركتُ أن غفوة النوم تلك كانت فخاً لأسقطُ في غرام هذه المرأة...

أجابته منار بسرعة:

- بل هو فخك الذي أوقعتني فيه يا محتال.

صاح الجميع ضاحكاً وهم ينتظرون منار أن تكمل قصتها.

- التقينا مرتين وثلاثا ..وبعدها بشكل متواصل شبه يومي لتبدأ بيننا قصة حب كانت ولازالت متوهجة. قصة حبٍ صمدت أمام أشرس العقبات...

- عقبات؟ ...!! أي عقبات؟

علَّقت مريم على كلام منار بدهشة ملامح. ليجيبها عزيز:

نعم، وأي عقبات يا صديقتي. عندما أيقنتُ أن هذه الفتاة هي مشروع حياتي المستقبلي ذهبتُ عند والديها لخطبتها. كنتُ أعلمُ أنني فقير ومجرد موظف صغير بجريدة متواضعة آنذاك، لكنني لم أكن أعتقد أن هذه المشكلة ستتحول إلى عقبة كبيرة في عيني والديها اللذين رفضاني بكل بساطة لأنني لا أنتمي لعائلة كبيرة ولا مستقبل زاهر لي يطمئنون به على ابنتهم و...و..و

هذا اللقاء الأول أشعرني وكأن لا قيمة لي في هذه الحياة وأن قصة حبنا أنهتْ كل فصولها الوردية لتدخل فصولها السوداء.

جحظت عيوننا متسائلين كيف استطاع ثنائي الحب هذا تجاوز كل هذه العقبات. واصلتْ منار الحديث بعد أن أمسكت بيد زوجها، وقد بدا عليه الانفعال، وكأنها تذكره بأنهما الآن معا رغم كل هذه الآلام والمحن.

- حاولتُ بكل قواي أن أقنع والديّ بقبول زواجي من عزيز لكنهما رفضا، ووضعاني أمام خيارين، إمَّا أن أنصاع

لرغبتهما وأنسى عزيز وإمَّا أن أركب أمواج الحب. فاخترتُ أن أغادر البيت حاملة حقيبتي إلى بيت عزيز الذي ارتبكَ في البداية لكنه كان مقتنعاً أن هذا هو الحل الوحيد لنجاح حبنا.

قفزتْ مريم متسائلةً:

- وما كانت ردة فعل والديك؟

أجابت منار مبتسمةً وهي تنظر لعيني عزيز:

- قاطعانا لسنين بطبيعة الحال، فلقد اعتبراني ابنة عاقَّة. لكن بعد إنجابي لوفاء، طفلتي الأولى، تقبلا الأمر وبادلانا بعض الزيارات.

صاح عزيز، مقاطعاً:

- لا شيء أثمن من الحب الحقيقي في هذه الحياة، صدقوني إنه يستحق أن نناضل من أجله مهما كانت الفاتورة باهظة.

أحسستُ أن عزيز كان يغمزُ لي بهذه الكلمات الأخيرة التي ظلت ترنُّ في أذني دقائق طويلة مقاومةً أنغام الألحان الأندلسية التي تعمُّ المكان.

مرَّ الحفل بهدوء قاتل وممل وأنا أختلسُ من حين لآخر النظر إلى منار التي تحولت إلى قديسة في عيني .كيف لفتاة في عمر

الزهور أن تضحي بكل شيء فقط من أجل رجل تحبه؟، كيف تضحي بوالديها وعيشها الرغد من أجل قصةِ حب؟

قديسةٌ هي هذه المرأة .

فراغ كبير أحسستُ به وأنا أركب سيارة الأجرة عائداً إلى شقتي. دفعتني أناملي إلى فتح صفحتي على الفيسبوك لعلِّي أجدُ في الاستئناس الافتراضي ضالتي... وجدتُ رسالة بتاريخ اليوم لزهرة تُخبرني أنها ستذهب في رحلة ترفيهية مع أصدقائها وتود أن أرافقها. أجبتها دون سابق تفكير بالقبول. كيف لي أن أفوت فرصة قضاء يومين كاملين مع زهرة. فربما ننقذ قصة حبنا من النهاية المتربصة بها بكل شراسة.

* * *

أيام قليلة حتى وجدتني مع زهرة في مدينة مراكش، ننزل في فندق واحد أنا وهي وبقية أصدقائها .في أول ليلة لنا وجدتني أتوسط مجموعة من الشباب المراهقين الذين يملؤون الجو صخباً بضحكهم وأصواتهم المزعجة. يتنططون من حولي كقطط تخلقُ من اللاشيء موضوع قهقهة ونشاطاً زائدا.

لم أكن حينها أكترث إلا ليد زهرة التي كانت تشبكُ يدي الموضوعة في جيب معطفي بقوة، ولعينيها الجميلتين وهما تغمزان لي حباً وشوقاً.

آه يا زهرة كم أعشقُ نظراتك.

- تمنيتُ أن نقضي هذين اليومين معاً بعيدا عن هؤلاء الفوضويين يا زهرة
- هؤلاء الفوضويون يا طارق هم أصدقائي ولا يمكن أن أتخلى عنهم هكذا.
- أنا لم...

توقفتُ فجأةً عن إكمال جملتي وكأن تياراً كهربائياً يغذي كلماتي قد انقطع، ولكنه لم يكن في الحقيقة سوى عودة لذلك الألم الذي تجرَّعتُه يوم فضلتْ زهرة عليّ أصدقاءها وأكدت لي عدم استعدادها للتخلي عنهم في سبيلي.

كيف يمكن لنا أن نحبَ شخصاً ونفضل عليه أصدقاءنا؟، كيف يمكن لنا أن نقول لشخص أنتَ كل ما أريد وأشتهي في هذه

الدنيا وفي نفس الوقت نبيعه مقابل ثلة من الأصدقاء والمعارف؟ أي انفصام الحب هذا؟

ظللنا نمشي في شارع محمد الخامس الذي بدا لي، وسط البرد القارس الذي يعم هذه المدينة الحمراء، طويلا وكأن لا نهاية له. لم تكن تقطع برودته إلا حرارة يد زهرة ونور عينيها.

كانت أقدام المجموعة لا تخطئ وجهتها ...فهم يبحثون عن السهر وتمضية وقت ممتع. توقف الجميع أمام نادٍ للسهر الليلي كتبت فوقه عبارة من تلك العبارات التي تثير فيَّ الحساسية الطبقية :VIP

أمسك كل شاب بيد صديقته مجتازين مدخل النادي الذي يحرسه ثلاثة أشخاص ضخام الأجساد، لا تعرف أنهم من البشر إلاَّ من عيونهم التي أتعبها السهر .ألمحت لي زهرة بطرف عينها اليسرى بالدخول دون مقاومة.

- أنا لا أحبُ هذه الأمكنة يا زهرة. إنها لا تضيف لي شيئا سوى الضجيج والأضواء المزعجة وهراء الكثير من المجانين المصابين بالصَّرع. تعالي نسهر سويةً في ناد موسيقي هادئ...

- طارق، لا نتجادل عند الباب ...أصدقائي ينتظرون

دخلنا في طرقة طويلة وضع على أرضيتها بساط أحمر تقليدي وتظهر في آخرها أضواء باهرة ومتراقصة فضلا عن

الأصوات الصاخبة التي كانت ترتفع مع اقترابنا من صالة الرقص.

ألقى علينا أحد الرجال التحية باحترام مبالغ فيه وكأنه رأى شخصيات نافذة تلجُ المكان. اقتادنا إلى طاولة وسط قاعة ملأتها الأجساد المتمايلة بالرقص، وقد نزعت عنها ما تبقى من ثياب من شدة الهستيريا. جلستُ مع زهرة على الأريكة في حين لم يتأخر الباقون في الانضمام إلى كوكبة الراقصين على الحلبة !!

بالرغم من جلوسها إلى جانبي، كانت زهرة ترقص بكل أطرافها، أناملها، رأسها الغارق وسط شعرها المنفوش، كتفاها اللذان أسقطت عنهما معطفها لتظهر عارية بيضاء في هذا الماخور البورجوازي ...

- ما بك تنظر إلي هكذا؟

صاحت قائلة باندفاع متشنج بعد أن أوقفت أطرافها عن الرقص.

نظرتُ إلى عينيها بكل شراسة وأنا أنفث الدخان في وجهها. قلتُ لها:

- أنتِ تعلمين أنني لا أحب أن تظهري شبه عارية هكذا، خصوصا في أمكنة كهذه .. أنت لستِ بفتاة ليل.

- وأنتَ بدأتَ تثقل عليَّ بشخصيتك المحافظة هذه .. أنا لا أعلم كيف تجمع بين متناقضات الشِعر الجريء والفكر الاشتراكي

الثوري التحرري من جهة، وهذه القيم المحافظة البالية من جهة أخرى .. !! أنت تعيش تناقضا قاتلا يا عزيزي..

- هذا التناقض هو أنا.

أجبتها بكل كلفة واقتضاب دون أن أنظر إليها ملتفتا فقط إلى سيجارتي.

أشعلتُ سيجارة جديدة ثم أعدتُ النظر إليها قائلاً:

- ماذا تنتظرين؟

- في ماذا؟

- ستبقين عارية هكذا؟

- طارق أنا لستُ أَمَةً لك ..ولن تملكني وتغير عاداتي ومبادئي على هواك. أنا آسفة.

أنهت كلامها ونهضت لتنضم لأصدقائها للرقص بكل هيستيرية. أحسستُ أنها ترقص على عروق دمي، ترقص على كل ذكريات علاقتنا التي تتفنَّنُ الآن في تحويلها إلى أطلال خالية... أطفأتُ سيجارتي بكل هدوء على منفضة السجائر واندفعتُ خارجا من هذا الماخور الذي لا يشبهني في شيء، تاركاً فيه تلك الفتاة التي ظننتُ يوماً أنها تشبهني.

أنا بحاجة لامرأة تقاسمني نفس المشاعر وترفض أن تضع إلى جانبي شريكا آخر.

* * *

لا أدري لماذا وأنا أتابع السير للوصول إلى بيت عزيز، كنتُ أفكر في ليلى وفي زهرة. الفرق الكبير بين شخصيتيهما. ليلى رومانسية، حنونة، تعيش الحب بكل تطرف وتلقائية، تعطي لحبيبها كل الوجود دون تحفظ. أما زهرة، فكل ما يجمعني بها شعور زئبقي غامض، تارة يكون حبا هائجا وتارة أخرى فوضى من الأحاسيس المتضاربة والمتناقضة. بيني وبين زهرة، الحب هو الاستثناء أمَّا النفور والصراع فهما القاعدة.

خلصت أنَّ الحب لا يؤمن بالمنطق ولا بقوانين الاحتمالات. قد يجمع امرأة ورجلا لديهما كل أسباب النفور من بعضهما، ويغيب عندما يلتقي آخران متشابهان حد التطابق .!! أيلعب معنا الحب لعبة استعراض العضلات بكل هذه القسوة ليبرهن لنا أنه يصنع بأقدارنا ما يشاء؟ من أين له كل هذه السادية؟ أمن المعقول أن يكون الحب الذي غنَّت عنه أم كلثوم وأسمهان وعبد الحليم غرابا أسوداً ينذرنا بالكارثة والسنوات العجاف عندما يطرق باب حياتنا؟، يحلِّق فوق رؤوسنا منتظرا أن نصبح جيفاً من الألم ووجع الفراق حتى يقتات على جثثنا...؟

أيعقل أن يقتات الحب من جثث رواده؟، أيعقل أن يبني أساطيره من عظامهم؟!!

لا أعرف لماذا دعاني عزيز وزوجته إلى العشاء هذه الليلة؟ كانت الأسئلة تتقاطر على رأسي كزخَّات المطر...

كان عزيز ينتظرني بكل حرارة ولباقة عند باب المنزل الجميل الذي كانت تتقدمه حديقة صغيرة غطاها الورد والزهر الفاتح اللون. عزيز شاب ذكي، يستغل فرص النجاح السهلة ولا يضيع وقته في التفاهات التي لن تعود عليه بالنفع. وها هو الآن يعيش كبورجوازي بعد أن تسلَّق السُّلم الاجتماعي بالطرق التي يجيدها. كان يعرف منذ أيام الجامعة أننا نضيع وقتنا وطاقتنا في النضال السياسي وحلمنا بالاشتراكية والتحرر العربي ... كان دائما يقول لنا إن تحرر المرء يأتي عبر المال والسلطة.

لقد أصبح الإنسان آلة مادية تجري وراء الثروة والسكن الجميل والسيارات الفارهة وتكديس الأموال. أصبحت الحياة مادية لا نكهة لها ...تراجعت كل تلك القيم الجميلة والروحية التي تميز الإنسان، لم نعد نسمع بقصص حب كبيرة كتلك التي سمعنا عنها في الزمن الجميل الغابر ولا تلك الملاحم الفلسفية والفكرية التي رسمت لنا قرونا زاهرة في تاريخ البشرية.

بعد أن كان العالم يملكه سقراط وأفلاطون وأسخيليوس والمتنبي وهوميروس وعنتر عبلة وقيس ليلى وروميو جولييت وابن خلدون وميشال عفلق وزكي الأرسوزي، أصبح يحكمه الماديون والعائلات الثرية وأمراء الحروب والبترول وإرهابيو القاعدة وداعشيو الخلافة الإسلامية المزعومة...

لقد انقلب هذا العالم على نفسه وأصبح فارغاً أجوف من كل معانيه وقيمه الروحية.

على طاولة الطعام، استطاعت منار بشخصيتها اللطيفة والمرحة أن ترسم الابتسامة على شفتينا أنا وعزيز ... كانت تتحدث بحيوية بالغة وجمال مثير. تأكدتُ حينها أنني أحسدُ عزيز على هذه المرأة، لكن في نفس الوقت قلتُ في نفسي إن ليلى هي سيدة المرح والجمال ولا يمكنُ أن توجد فتاة أعذب منها.

قطعتْ رنة هاتفي صوتَ منار، اعتذرتُ حينها كي أجيب:

- ألو...
- مساء الخير يا طارق ولد الخيل ..
- مساء الخير سيدي، من معي؟
- لا يهم، المهم هو ما ستسمعهُ مني والأهم هو أن تنفذه وأن تحترم رغبة الوطن ..

أجبتُ باستغراب وتوجس بعد أن أربكني هذا المتصل المجهول:

- أنا أسمعك ...
- كنا نظنُ يا بني أن تصرفاتك ستتسم بالعقلانية بعد مغادرتك للجامعة وتخليك عن العمل السياسي، لكننا اكتشفنا الآن أنك بِتّ أكثر طيشا وتهديدا لهذا الوطن بمقالاتك الصحفية. ورغم ذلك أظهرنا الكثير من العطف واللامبالاة وأغمضنا الطرف عن حماقاتك. وها أنت اليوم تسيء لمؤسسات الدولة وتشوه سمعتها كما فعلتَ في بحثك الصحفي الأخير. هذا أمر مرفوض وبشدة ...

- البحث الصحفي تناول قضايا فساد موثقة والجريدة تملكُ ألف دليل وراء كل كلمة قيلتْ فيه، وإن كان لديكم أي اعتراض فالمحاكم أمامكم لمقاضاتنا. ألا نعيش في دولة القانون والمؤسسات كما تقولون؟!!

- دولة القانون هذه التي تتمتع فيها سيادتك بالحرية والديمقراطية بناها أناسٌ شرفاء، أوفياء لهذا الوطن وليس أولئك الفوضويون والغوغائيون الذين يحاولون تهديد استقراره وحالة الاستثناء التي يعيشها وسط كل الدول العربية التي تغوصُ الآن في الفوضى. عليكَ أن تشكرنا على نعمة الأمن يا جاحد ..

- صحيح ... نشكركم على هذا الأمن والاستثناء!!

- اسمع، إما أن تحترمَ رغبة هذا الوطن وإرادة مؤسساته، أو تغادره. والسجون وضعت لأمثالك.

انقطع الاتصال .. لم أكن أظن أن الماضي سيجتاحني بكل ذكرياته الجارفة هذه الليلة. لم أتخيل وأنا المعذب بقصص الحب واحتضار الحياة أن يهددَ كياني من جديد خوف الاعتقالات والتعذيب والمتابعات البوليسية. كان عزيز ومنار يمعنان النظر إلي في انتظار أن أشرح لهما ما دار على الهاتف، لكنني قطعتُ حيرتهم قائلاً :

- منار، أنا بحاجة لصوتٍ جميل يداعب أذني فقد أتعبتني أصوات النشاز ... احكي لي قصةً مُمتعة بطلتها امرأة

جميلة، فالمرأة وحدها القادرة على رسم قدرٍ جميل لي وسط كل أقدار الجحيم التي أعيشها.

* * *

سمعتُ طرقاً رقيقاً على الباب. في اللحظة التي أردتُ فيها فتحه توقفت لبرهة، كان عطرها يفوح من وراء الباب. نعم كانت هي. فتحتُ الباب لتدخل بخطوات متثاقلة. لم تنبس شفتاها بكلمة. ولا أنا. ظللنا ننظر لبعضنا البعض دقائق طويلة قبل أن أقرر قطع هذا الصمت العبثي قائلاً:

- ماذا أعدُّ لكِ؟ قهوة، شاي...

- أنتَ تعلم أنني لستُ ضيفة يا طارق. إن أردتُ مشروباً فسأعدُّه بنفسي. أنسيتَ أنني حفظتُ هذه الشقة عن ظهر قلب.

- لا، أنا لم أنسى ولكن أنتِ من نسيَ هذه الشقة.

وضعت جبهتها البيضاء على جبهتي في وضع رومانسي مثير. كانت رائحة أحمر شفاهها تُغريني بالغوص في أعماق مياه شفتيها، تخيلتُ نفسي وأنا أرتمي وسط أمواج جسدها لأسحقَ كل ينابيع الأنوثة المتفجرة فيها...

قالت:

- أنا لم أنسك ولن أنساك يا طارق، ولكن كان لابد أن أبتعد قليلاً كي أقيِّمَ علاقتنا.

صحتُ وأنا أبتعدُ عنها بغضب:

- لا أعلم لمَ تستعملين هذه العبارات السياسية دائماً في قصتنا، تقييم علاقة، جسور ثقة، أرض مشتركة!

توقفت برهة متحسِّرا على كلامها، ثم صرختُ في وجهها:

- زهرة أنا أحبك ولستُ جيشاً يترصدُ مملكتك...

صاحت بقوة:

- وأنا لا أعلمُ إن كنتُ أحبك .نعم، أشتاقُ إليك، تحلو لي لقاءاتنا وأجدك مختلفا عن كل الرجال الذين أعرفهم ولكن...

- ولكن ماذا؟

- ولكن نحن مختلفان بشدة، أنتَ تنتمي إلى عالم غريب، كلاسيكي مليء بالشعر والأحلام والفلسفة والثورة والنضال المسلح ... تعيشُ بين كتب أسخيليوس وماركس وعفلق ومحمود درويش، لا تهربُ منها إلا إلى السجائر والخمر. أنتَ تضيع يا طارق تضيع، وأنا أريد أن أعيش حياة ممتعة رغدة كما هي حياتي الآن. من حقِّي أن أختار الشخص الذي

يناسب حياتي، ليس بالضرورة أن أحبه لكن بالضرورة أن يناسبني وأنا يا طارق لا أناسبك كما لا تناسبني.

أجبتها بصوتٍ هادئ وساخر:

- كنتُ أظن أن الفرق بيننا مادي فقط لكنني أكتشفُ الآن أسباباً أخرى، وجودية...

رمتْ بجسدها على الأريكة المتواجدة بالغرفة المقابلة للشرفة وأغرقتْ رأسها وسط تلك الأمواج الذهبية من شعرها الأشقر.

قطعتُ صمتها قائلاً:

- بعد كل هذا الغياب تأتين اليوم محاولةً تنكيس أعلامك في قلبي، أليس كذلك؟

رفعتْ رأسها ببطء، ثم قالت:

- وهل فعلاً تستطيع تنكيسَ أعلامي في قلبك؟

هربتُ من سؤالها المربك إلى إشعال سيجارةٍ جديدة، رشفتُ منها نفساً عميقاً لعلِّي أفرغُ صدري من الثقل المتراكم عليه منذ حضور هذه الطاغية. لكنها أجابت على سؤالها بكل ثقة وبكل سادية، قائلة:

- أنتَ لن تستطيع.

- لم أنتِ متأكدة هكذا؟

- لأني لم أر أبداً رجلاً صادقاً في حبه مثلك. وهذا ما يعقد المسألة بيننا.

- الصادقون لا مكان لهم في قصص الحب ولا في تاريخ البشرية.

مرت علينا لحظات صمت قاتلة، لم يجد أحد منَّا ما يقوله للآخر، وكأن كلا منا استنفذ رصيده من الكلمات. فجأةً، وقفتْ بسرعة، عدَّلتْ ثيابها وشعرها الفوضوي. قالتْ وهي تنظر إلى عيني:

- أنا ذاهبة، وربما لن أعود ثانية يا طارق .أنا آسفة، وداعاً.

رحلتْ، غادرتْ، غابتْ ..كل أفعال الغياب حلَّتْ برحيلها.

رحلتْ دون أن تلتفت إليّ ودون أن أعانقها... رحلت الفتاة التي علقتُ عليها قبل شهور كل آمالي في النجاة وفي بناء مشاريع حياة جديدة... بدت لي السماء من الشرفة ملبدة بالغيوم الرمادية الكبيرة، شاحبةَ كأوراقِ الشجر الخريفية التي تتطاير لتراقص الرياح بالشوارع غير آبهة بإشارات المرور ولا بالسيارات التي تسابق الزمن وسط المطر.

وحده المطر سيغسل خيبتي هذه الليلة، سيشفي سقوطي الموجع في العدم. وهو الذي يجيد السقوط بعظمة الكبار، يُكسِّرُ أضلاعَ قطراته على الطرقات وأسطح المنازل. يعيدُ جمع شظاياه سيولا ووديانا جارفة ...مَن عند سقوطه تزأر له السماء وتلمعُ رعدا

وبرقا؟ أهناك عظمة أكبر من السقوط مطراً؟ أهناك خيبة أكبر من السقوط حباً؟

قررتُ أن أمشي في هذا المطر ...ألتحفُ رائحة التراب وأرافق قطراته في سيلها .قصدتُ مقهى ستيامار. جلستُ على المقعد الذي اعتدتُ الجلوس عليه وتركتُ عيناي تسايران المارة على الطريق وتختلسان النظر بين الفينة والأخرى إلى وجوه الفتيات وكأني أبحث عن ملامح أنثوية أعرفها.

كلما نظرتُ إلى فتاة أحسست بمرارة وحسرة الفشل من انتهاء قصتي مع زهرة. كيف لي أن أعود إلى عالم النساء بعد كل هذا الانكسار؟ لم أعد أستطيع أن أبيع جسدي وروحي لأي فتاة تجتازُ شارعي حتى وإن كان المقابل يسمى"حباً"، لقد تعبتُ من الحب و يا ليتني أعتزلُ قصص الغرام وشوارع النساء للأبد.

قلبي يريدُ إسقاط النساءِ
من كل الأبجدية المحتلة لحنجرتي
من كل الحروفِ المتناسلةِ على ريشتي
أريدُ ربيعا عربيا على صيغتي
يتعثَّر بشظايا الأملِ في ذاكرتي
يَنزِعُ النساءَ وعطورهنَّ عن أضرحتي
لِتحُلَّ الفوضى وموجات التمرد على خريطتي
يكون فيها نظامُ المرأة الحريقُ والمصلوبُ على ثورتِي
أُنشئ مجالساً تحكمنِي
لا شفاهَ محمرةٍ فيها، ولا نُهودَ تسلبُنِي

أعيدُ نقاشَ مبادئي وهويتي
أقيمُ دستورا لا يعرف تاء التأنيثِ
ولا نون النسوةِ
أعلنُ ميلاد أحزابٍ ووطنٍ جديدٍ يَسكنُنِي..
أريد للفوضى من جديد أن تَعُمَّنِي
أن يأتي ديكتاتور آخر ليحكُمَنِـــــي
من اليسار، من اليمين .. لا يَهمُّنِي
فأثور من جديد ..
أملَأ الساحات والميادينِ
يأتي ربيع آخر يغرقنِي
أتمردُ، أجهلُ وتتيه بي الأحلام وتسرقنِي
ليهبَّ العسكر بدباباته إن شاء ليحكمنِي
فأنا تعبــت من عـهد النســاء والقبـــلِ..

- ما بكَ يا سي طارق؟. ما يشغل بالك؟!

رفعتُ عيني صوب المتحدث فإذا به نادل المقهى سعيد.

- تعبتُ يا سعيد ...أنا متعب من الحياة. كل أحلامي لا تتحقق وها أنا الآن أعيش بلا أحلام. ألديك وصفة تحقق الأحلام يا سعيد؟!

أجابني بلطف بعد أن ظهرت على عينيه آيات الحسرة والمواساة:

- ربُّك سيفرجها سي طارق. سأحضر لك حليبا باللويزة يهدِّئُ روعك...

ربِّي سيفرجها ...!! وكأنني لم أعد أثق بهذه الكلمات المخدرة التي تجعلك تبني آمالاً وهمية فقط لتجعل حياتك تمضي.

رشفتان من كأس الحليب الذي أحضره لي سعيد جعلتاني آخذ قراري بالمغادرة. أن أغادر هذا الوطن بكل انكساراته المسترسلة...

الرحيل وحده سيمنحني حماماً ساخنا أتخلَّصُ بواسطته من وحل العثرات وفشل كل أحلامي وقضاياي. وما أجمل الرحيل عندما تكون الوجهة أرض فلسطين، أوركسترا الرصاص وملحمة النضال القومي العربي. ولأن القدر يستجيب بغرابة وبسرعة غير مفهومة لقرارات رحيلي الأبدي، جاءني اتصال من صديقي أحمد سيسرِّع من مشروعي في الرحيل.

كان صوت أحمد متقطعاً، حزيناً. طلب مني الحضور فورا إلى مدينة تطوان كي أنقذه بعد أن تقطَّعت به كل السبل وفشل مشروع هجرته السرية إلى الديار الإسبانية.

في الصباح الباكر، أخذتُ أول قطار إلى مدينة أصيلة، ومن هناك بالحافلة إلى تطوان على أن أنهي يومي في مدينة طنجة لأزور فيها رفيقي نجيب. تذكرتي إلى فلسطين.

وجدتُ أحمد جالسا، برصيف مقهى مقابل لساحة العهد، كئيباً كمن خسر كل حروبه مع الدنيا. بمجرد ما رآني قفز المسكين لمعانقتي.

عندما تتقطَّع كل أحبال نجاتك في هذه الدنيا وتشعر أنَّك تُركتَ وحيدا لمصيرك البائس تبدأ في نسج خيط رفيع من الأمل في ظهور شخص ما لينقذك ...أي كان هذا الشخص. وعند ظهوره تقفز جوارحك بأكملها لمعانقته. هكذا يستقبل الإنسان آخر آماله.

- اعذرني يا طارق تجشَّمتَ عناء المجيء حتى تطوان بسببي، أنا حقاً خجل..
- لا عليك يا أحمد، فأنا على كل حال كنتُ أنوي السفر إلى الشمال هذا الأسبوع. وهذا هو حق الرفيق على رفيقه، يقف إلى جانبه وقت الحاجة. وكم وجدتك مرات عديدة تآزرني بطلب أو بدونه.
- كما ترى يا طارق، لقد أصبحتُ مشروع مهاجرٍ سرّي، تلاشتْ أحلام المستقبل والكرامة والحب في هذا البلد... غدت أحلامي هي الأخرى مهاجرا سرِّيا...

سقطت صورة زهرة خلسةً كشلال جارف في فكري عندما بدأ أحمد يتحدث عن أحلام الحب ..!! غدتْ زهرة تكمنُ لي في كل كلمة وحرف وصورة؟... أصبحت كل الكلمات شوارع تحملُ اسمها؟

تابع أحمد كلامه وانشغلتُ أنا بهذا السيل الداخلي الذي جرَّ معه آخر القلاع الحصينة التي بنيتها على شاطئ غرام زهرة. بدأتُ أحصي كل الكلمات التي تثير اسمها بباطن عقلي وظاهره: الحب، الشعر الأشقر، الرسم، الفساتين الملونة، شتراوس، الجسور ...

تعرَّفتُ على أحمد يوم الأحد 20 فبراير من سنة 2011 في مدينة الدار البيضاء. كنَّا حينها نصرخُ سوية رفقة رفاقنا الفبرايريين والقوميين العرب ضد الاستبداد والفساد. كانت أصابع يد أحمد تتشابك مع أصابع صديقته "غيثة" طوال ساعات المظاهرة. كانا يظهران كثنائي حب جميل. يصرخ أحمد بأعلى صوته مردداً الشعارات الحماسية ضد النظام وضد الرأسمالية وهو ينظر إلى عيني حبيبته، وكأنه يقول لها لولاك لما علا صوتي، بل لما كان لديَّ صوت.

تَركتْهُ حبيبته في النهاية لضيق حاله وانسداد أفقه. تركتهُ مكسوراً، شبه رجل، لتغادره إلى رجل آخر مكتمل بجاهه وغناه .

هناك من يدخل قصص الحب بحسابات الربح والخسارة كمن يدخل مشاريع تجارية.

من قال إن المرأة وحدها ضحية قصص الحب الفاشلة، جاهلٌ لم يدخل معبد العشق قط ولم يصل صلواته. الرجل بقوته، بكبريائه وصلابته أكبر ضحية للحب. فبقدر القوة والصلابة يكون الانكسار مدوياً. وها هو أحمد منكسر، ككل الشباب المغاربة،

ككل أولئك الذين حلموا بوطن آخر ذات صباح من شهر فبراير، شهر الأحلام والآمال المتكسِّرة.

بعد لقائي بأحمد، قررتُ أن أمضي الليلة بتطوان قبل أن أغادرها لملاقاة نجيب بطنجة. أحسستُ حينها أنني بحاجة لأن أفرغ نفسي من هذه المدينة الزرقاء وجبلها الغامض جبل بوعنان الذي يغطي بغموضه ذكريات جميلة من حياتي المتآكلة.

"زيوس"

أحسست بتعب خفيف يتسلل إلى قدميَّ من فرط المشي. جلست على أحد أدراج بناية قديمة يظهر من طرازها أنها إسبانية أو برتغالية. راقني منظر الزقاق والطلاء الأزرق والأبيض على جدران البيوت العتيقة، وتلك الأندلسيات، الساحرات البيضاوات اللواتي يجبن الأرجاء بروائحهن العطرة كنسيم بحر طنجة. أطلقت رجلي للمشي مرة أخرى في الزقاق الطويل الذي ينتهي إلى ممر صغير حيث يوجد بيت نجيب.

كان الزقاق أشبه بسفينة بحرية تحملني إلى الأندلس على أمواج من الروائح الأندلسية العطرة، الريحان والقرنفل والياسمين، أصوات النسوة الشماليات التي كانت تتساقط على مسامعي وأنا أمر من أمام تلك الأبواب الخشبية كأنها أصوات قيثارة غرناطية ممزوجة بقرع أحذية راقصات الفلامنكو. وقفت أمام ذلك الباب البنِّي اللون الذي لطالما قرعت أناملي يده الخماسية المصنوعة من النحاس. باب خشبي تفوح منه رائحة العرعار والقطران العطرة الذائبة على نقوشه الجميلة وكأنه لوحة تشكيلية بأحد المعارض الباريسية.

تركت برهة من الزمن تمر عليَّ وأنا أتحسس هذا الباب وكأني أنتظر أن يبادلني بالعناق من فرط اشتياقه لي ويفتح كل أحضانه

ترحيبا بقدومي، لكنه لم يفعل، فقررت طرقه ثلاث طرقات متباعدة كعادتي. أصوات خطى تقترب، أحسست معها أن قلبي يتراقص، ثم يُفتح الباب ليطلَّ عليَّ نجيب بوجهه الناعس الذي سرعان ما تحول إلى وجه طفولي علته الفرحة من رؤيتي.

- من؟ طارق ولد الخيل !! صاحب البذلة السوداء؟ بالأحضان يا رفيقي العزيز
- نجيب الصحراوي ... عميد الرفاق
- اشتقت إليك يا صديقي، إنها والله لأجمل مفاجأة هذا اليوم.

كلما التقيتُ بنجيب إلا وكان العناق الحار أول اللقاء ومسك ختامه. سنوات طويلة نسجت أغرب وأجمل علاقة إنسانية بيننا منذ أيام الجامعة، حيث كان نجيب منسق فصيل الطلبة الماركسيين اللينينين الذي كنت أنتمي إليه قبل أن نكتشف معا أن القومية العربية هي حمضنا النووي الحقيقي. لا يمكن لمخيلتي أن تنسى تلك الحلقات الفكرية التي كان يتوسطها نجيب على الدوام، صادحا بصوته الجهوري على الملأ، ولا الزنازين المظلمة التي تفنَّن النظام في فتح أبوابها لنا بعد أن تضيق كل حيله القمعية.

تخرج نجيب من الجامعة، شعبة الإعلام ليتركني والبقية في السنة الثانية. تخرج ليلتحق بفلسطين حيث قاتل هناك في صفوف الجبهة الشعبية لسنين طويلة، ليغدو أحد أكبر كوادرها. تركني بعد أن كان رفيقي لسنين، لا نفترق فيها إلا نادرا نتقاسم غرفة الحي الجامعي بالسويسي معا، ندرس سوية، نعد للأنشطة

الطلابية والسياسية معا ... لقد كان نجيب أبا لي حيث فشل والدي أن يكون أبا.

أنقذ نجيب حياتي عندما اكتشفَ ذات ليلة أنني أتعاطى المخدرات. كنت حينها أرافق مجموعة من الشباب المدمنين عندما صارت أمواج اليأس تتقاذف قاربي بلا رحمة. أشبعني يومها سيلا من الضرب والشتائم وانتهى به الأمر أن قيد يديّ وحبسني في الغرفة. لم يكن يعود إلا بعد الظُّهر محملا بكيس من الأكل وبما فاتني من محاضرات الجامعة دون أن ينسى جريدة الصباحً المفضلة التي كنت أدمن فيها على قراءة عمود الصحفي الأنيق" رشيد نيني "على آخر صفحاتها.

ظلَّ يحبسني شهرا بكامله، يطعمني، يلبسني، يحضِّر لي الدروس ويساعدني على الاستحمام. تذمرتُ في البداية وكرهت تدخُّله في شؤوني لكن سرعان ما أحسست أن هذا الصديق تحول إلى أب لي في لحظة كان الضياع يفتح فمه ليتلقفني. كم صرتُ ممتنا له بعد ذلك.

- لم تزرني منذ سنة كاملة يا نجيب ! أتقاطعني؟
- حاشى أن أقاطع رفيقي وأخي الصغير، هو الوقت الذي لا يرحمنا يا طارق.
- من يسمعك تقول هذا الكلام سيعتقد أنك أصبحت رجل أعمال أو فنانا لا تتوقف أنشطته. أنت لا عمل لك ولا عائلة، وبعد عودتك من فلسطين لا تعرف سواي، فما بك؟

يكتفي نجيب بابتسامة باردة وكأنه يريد أن يخفي أسبابه الحقيقية خلفها. طلب مني الجلوس بقاعة الضيوف التي كانت مفروشة على الطراز الغرناطي. على المائدة تناثرت قنينات البيرة ومطفأة السجائر وجريدة عرفتُ من ورقها الأخضر أنها جريدة الشرق الأوسط.

- منذ أن ورثت هذا المنزل عن أسرتك المنقرضة وأنت لم تغير شيئا فيه، اللَّهم صور القوميين العرب التي زينتَ بها قاعة الضيوف والتمثال الشبيه بالنمر الذي تضعه عند الباب...
- وقنينات البيرة والويسكي التي تملأ الثلاجة ...

أجابني نجيب وهو يضحك ساخرا.

- ماذا تشرب؟
- ما أحضرته يا رفيقي نجيب

أسرع نجيب إلى المطبخ ليلبي واجب الضيافة، فيما نهضتُ أنا لتشغيل التلفاز متداركاً ما فاتني من أخبار هذا اليوم.

يصيح نجيب من المطبخ:

- أتعلم يا طارق؟ كنت أستشعر زيارتك هذه، لكني لم أكن أظن أنك ستأتي بهذه السرعة؟!
- وكيف استشعرتَ زيارتي يا سيدي العراف؟!

- تحدثت إلى خليل بالأمس، أخبرني أنك تريد العودة إلى فلسطين.

يتصاعد صوت نجيب وهو يتحدث منذرا بقدومه من المطبخ. يدخل ويداه تحملان صينية الشاي المنعنع وطبقي زيتون أسود وذرة مقلية مع قليل من الخبز. خمَّنت أن كل هذه الأطباق كانت معدّة سلفا وأن نجيب كان ينتظر أحدا.

- هاهي الذرة والزيتون الأسود الحلو الذي تعشق يا رفيقي.

غريب أمر نجيب، لا ينسى حتى أطباقي المفضلة.

- عتبي عليك يا طارق، كيف يأتيني الخبر من خليل وتنكره علي؟ !

- كنت أنوي إخبارك لدى زيارتي لك. أما خليل فلقد أرسلت له فقط رسالة إلكترونية مستفسرا ظروف القطاع وإمكانية انضمامي إليه.

- قطاع غزة يشتعل هذه الأيام، وهي الحرب لا نخطئ رائحتها. حماس تستعرض سيادتها في القطاع وتريد أن تظهر بمظهر الند والمقاوم لإسرائيل.

- وما موقف الجبهة الشعبية؟

- أنت تعرف يا طارق، البندقية خيارنا الدائم الذي لا رجعة عنه

- أريدك إذا أن تدبر ذهابي إلى فلسطين، أريد أن ألتحق بخليل في القطاع.

- أفكرت جيدا في الأمر أم هو الجنون كعادتك يدفعك إلى فلسطين؟!

رمقتُ نجيب بنظرة حادة تخبره بالجواب الشافي الذي ينتظره، ليستطرد قائلا:

- هو الجنون كعادتك!! ، متى تذهب؟

- عندما تدبر كل الأمر، غدا إن شئت.

- بعد أسبوع إذن.

شربت جرعة شاي تختلط فيه رائحة الأندلس ونعناع طنجة، وصحت محاولا تغيير الموضوع:

- ما أخبارك؟ كنت أعتقد أنك تزوجت عند عودتك!

- وكيف لي أن أنسى"نرجس" يا طارق؟، أنت تعلم أنني صرت أطلالا من دونها...

- نرجس اختارت حياتها بعيدا عنك يا نجيب، وما عليك إلا أن تفعل الشيء ذاته وتبتعد عن أطلالها.

- لا أستطيع يا طارق ...إنها تعشش في كل تفاصيلي اليومية، تعُدُّ عليَّ أنفاسي وتقفز إلى مخيلتي كلما التقيت بامرأة. لقد حكمت الأقدار على نرجس بالإقامة الجبرية في داخلي يا رفيقي.

- لم أكن أعلم أنك جبان لهذا الحد، استطاعت نرجس أن تنساك في شهور، وأنت الرجل المقاتل الشَّديد لا تنساها بعد كل هذه السنين...؟!

- مخطئ أنت يا طارق إن ظننت أن الرجل ينسى محبوبته بسرعة، وأن المرأة وحدها هي غير القادرة على النسيان...

يقف نجيب بتثاقل المنهزم. يتجه نحو الباب ليلبس نعله الجلدي الأسود، قبل أن يخطو متجها نحو طرقة المطبخ. توقف لبرهة ثم أردف ناظرا إليّ:

- الرجل يا صديقي راح ضحية الأفكار الجاهزة عن الحب. لقد تآمر عليه الرواة ومؤلفو قصص الغرام، صوروه شيطانا يدوس على قلوب النساء بلا رحمة، واعتبروا المرأة ضحيته الدائمة. أتعلم لِم منع الدِّين المرأة من الزواج بعد وفاة زوجها أو طلاقها إلا بعد مرور أربعة أشهر وبضعة أيام؟

- لأسباب جسدية متعلقة بالعدَّة!!

أجبته وأنا أعرف من بريق عينيه أنها ليست الإجابة التي ينتظرها.

يبتسم مشيراً إلي بأربعة أصابع:

- أربعة أشهر هي المدة التي يحتاجها جسد وقلب المرأة ليلفظا بقايا الرجل فيهما. أربعة أشهر لِتَنسى إلى الأبد الرجل الذي كان. أما الرجل !! فعليه أن ينفق كل حياته ثمنا للنسيان ...

ذهب نجيب إلى المطبخ وصوت خطوات نعله كأنها سوط يجلد مسامعي بعد أن أذمتها كلماته. لماذا يقسو عليّ نجيب كل مرة أزوره فيها؟ لماذا يصرُّ أن يشاركني ذاك السوط الذي يجلده بكل قسوة؟، أيعلم نجيب أنني خارج لتوي من قصة حب فاشلة فيقوم بإعدادي لتقبُّل فكرة أنني سأصبح رجلا منسياً في ذاكرة زهرة بعد أربعة أشهر كما قال؟ أتفضحني عيناي لهذه الدرجة؟ أم أن زهرة أخرجت كل أحشائي وأمعاء ذاكرتي من داخلي لتعرضهم على واجهتي الخارجية استجداءً للشفقة والنصح؟، وأي نصيحة يخرج عليّ بها نجيب؟! ، إنه يصادر كل ما تبقى لي من الحياة ثمنا لنسيان زهرة.

مالي عند ذكر اسمكِ أصير مادةً قابلةً للاشتعال، تحرقها أي رمشة طائشة من عينيك، ثم تقفزين فرحا بحرائقي ودخاني كطفلة صغيرة يثيرها منظر اللَّهب المتراقص في السماء الحالكة.

ما بال شرايين جسدي غدت شوارع وأزقة لا ترفع فيها سوى أعلامك. تمشين فيها بحذائك ذي الكعب العالي غير آبهة بصراخي ودمائي المتدفقة على ترابك. تفرضين فيها بكل استبداد حظر تجول، فتفرغ إلاَّ منكِ وكعبكِ العالي.

دخل نجيب وفي يديه هذه المرة زجاجات البيرة معلنا عن جلسة سكر كان ينتظر مؤنسا فيها. أخفى كل كلامه الحزين الذي قاله قبل قليل خلف ابتسامة صغيرة على شفتيه، تظهر كخط مائل

أسفل أنفه الدقيق الذي تزحلقت عليه بشقاء بعض قطرات الماء بعد أن أخفق في تجفيف وجهه.

هذا هو نجيب، يغسل وجهه عندما تضيق به كلماته ويهرب، قبل أن يجف، إلى زجاجات الخمر.

- أتذكر يا طارق كم من فرد كان يجلس على هذه المائدة أيام الجامعة؟، العشرات. انظر الآن: أنا وأنت فقط. كم نحن عظماء يا رفيقي.

- أي عظمة في الأمر يا نجيب؟، رفاقنا، البعض منهم هاجر دون رغبة في العودة، والبعض استشهد أو أصبح في خبر كان، وقلة يعيشون الآن سعداء في أسرٍ هادئة إلا من صخب الأطفال. أما أنا وأنت، فها نحن في منتصف الثلاثينيات من عمرنا، عازبان، لا عائلة ولا رفقة لنا، نعيش على الرصيف بين حياة نرفضها بكل ما فيها من بؤس وانكسارات وبين أحلام تعشش فينا لا نحن نحققها ولا هي تغادرنا. أي عظمة هذه والشيطان يربد على قدرنا؟

- هذا هو حال النمور في الغابة يا صديقي، تعيش لوحدها بنخوة بالغة. هذا هو قدرنا، نحن لسنا بمخلوقات أليفة أو مُدجَّنة، لا تمشي إلا في قطيع كي تشعر بالأمان ولا تهنأ إلا ولها سيد أو مولى. بصحتك وبصحة شيطانك.

غرقَ نظري في طلائع التجاعيد التي غزتْ جبين نجيب قبل أوانها. أحسستُ أنها تجاعيد الوطن، خنادقه التي حُفرت عميقا في ذاكرته حيث ألحد كل أحلامه ومشاريعه في الحياة.

***

أحسستُ بهاتفي يهتز على سطح الطاولة. تركتُ حاسوبي لألتفت لشاشته، فإذا به صديقي نجيب. خفق قلبي بسرعة لقرب ساعة الرحيل الأبدي إلى فلسطين.

- هل أزعجتك هذا الصباح؟

- أبدا رفيقي نجيب، كيف حالك؟

- أكيد لستُ سعيدا لأنك ستغادر البلاد في ظرف أسبوع.

شعرتُ باضطراب سريع في نظامي العصبي جعلني غير قادر على النطق مؤقتا.

- ما بك لا ترد؟ ... ألست مستعداً؟

- أكيد أنا مستعد، كنتُ في انتظار ردك.

- حسنا، سيصلك غدا طرد بريدي فيه جواز سفرك الجديد مع كل ما ستحتاجه. رحلة هذه المرة ستكون عبر سيناء كالرحلة السابقة فهمت؟!

- نجيب، يحب أن تعلم أنَّ...

- اسمع يا طارق، أنتَ تعرفني جيداً. لا أحب أن أودعك. إن كنتَ على الأرض أو في السماء فسأشتاق لك دائما. لكنني سأظلُ أنتظر أن تطرق بابي في طنجة. اعتنِ بنفسك يا أخي الصغير، تحياتي

- تحياتي يا رفيقي العزيز نجيب.

انتهت المكالمة بوضع نقطة نهاية لكل مشاريعي لهذا اليوم ولكامل الأسبوع. أطفأتُ حاسوبي وأحسستُ أنني بحاجة إلى هواء الرباط الطلق.

أحسستُ أنني بحاجة إلى معانقة هذه المدينة للمرة الأخيرة، أن أمشي وسط ساكنتها وأملأ أذنيّ بأصواتهم قبل أن يتسابق إليهما صوت الرصاص في فلسطين.

أسبوع كامل وأنا أتجول في شوارع الرباط من حسَّان إلى أكدال، إلى المحيط وحي الليمون والقبيبات وديور الجامع... تذكرتُ كل الأحياء ومن عرفته فيها. تذكرتُ إيمان، تلك الفتاة الجميلة الموزعة أحلامها بين الغناء ودراسة الطب ... زرتُ حي الفتح لأشم عطرها للمرة الأخيرة.

شربتُ الشاي في الوداية وعصير قصب السكر في باب الأحد رفقة ليلى، لعبتُ الشطرنج مع صديقي أحمد على أرصفة صومعة حسَّان، تجولتُ في كل شوارع الرباط رفقة عزيز ورفاقي القوميين القدامى فيصل وأمينة وزكرياء ...

تمتعتُ بالرباط كما يتمتع الأزواج ببعضهم البعض في شهر العسل، لكن عسلي مع الرباط كان له نهاية.

وجاءت النهاية في أقل من أسبوع.

- لا أريدك أن ترحل يا طارق. أن يغادر فرد مثلك هذا الشعب ... مأساة

جاءتني كلمات ليلى مرتبكة وحزينة ونحن جالسان في مقهى مطار محمد الخامس بالدار البيضاء، ننتظر أو بالأحرى أنتظر الطائرة التي ستقلني إلى مصر ومن هناك إلى غزة متسللا عبر معابر سيناء السرية بمساعدة رفاق نجيب.

كانت ليلى جميلة كعادتها، لكنها هذه المرة كانت مبعثرة أكثر...

- ربما مأساة بالنسبة لك أنتِ فقط. أما الشعب فلا يبكي على فرد منه، الشعب يبكي على سيده. كل هؤلاء الذين سادوا المغرب رافقهم الشعب بالدموع والنحيب إلى المقابر، أما أمثالي فكالصِّفر على الشمال. أنا يا ليلى سأموت شهيدا أو منتحراً، فالموت لن يهزمني إلاَّ إذا ذهبت إليه وأنا لا أريد الخلود. أكره فكرة أن أخلد في هذه الدنيا التي لا شيء أجمل فيها من كوننا سنموت.

رسمت كلماتي الصمت على شفتي ليلى وكأنها فجَّرت كل مشاريع الحروف ... ظلتْ توزع نظراتها الناعسة بين عيني وكأس الشاي الذي تعانقه أناملها، في حين غرقتُ أنا في نفث

الدخان بغزارة وكأنّني أريد إعدام كل سجائري قربانا لوداع ليلى ...

- ألن ترافقيني إلى صالة المسافرين...

- أريد أن أبقى جالسة لوحدي قليلا ... وربما سيظل شبحك جالساً معي لأنه لا يعشق المغادرة، على عكسكَ أنت.

لمستُ يدها السمراء متلعثما. ضغطت عليها بقوة ثم قلت بصوت شتته الحزن: اعتني بنفسك يا ليلى.

حملتُ حقيبتي اليدوية على كتفي ومضيتُ إلى خارج المقهى... لكن صوتَ ليلى رفض مغادرتي إذ اندفع بقوة من خلفي لتناديني.

التفتُّ لترتمي كطفلة مجهشة بالبكاء على صدري ... اغرورقت عيناي بالدموع ...آه كم أعبد هذه الفتاة عشقا!

- لماذا سترحل ... قلْ؟ لماذا؟

قبّلتها بارتباك وهيجان معاً ... كانت شفتاها مملحة بأحمر الشفاه الذي طالما جعل شفتي ريشةً تغوص في لوحتها ... أجبتها بحروفٍ مرتعشة :

- أنا آسف يا ليلى ... أنا آسف

بعد ثلاث سنوات

"تارتاروس"

اليوم أكمل ثلاث سنوات على مجيئي إلى فلسطين، إلى خان يونس عروس قطاع غزة بالتحديد .ملايين الرصاصات أطلقت في حضوري دون أن ينجح الموت في نقلي إلى العدم. إن كل طريق في هذه الأرض تؤدي إلى الموت .كل الأقدار والنشرات الإخبارية تتجمَّل بأبهى حللها لاستقبال الموت .في فلسطين وحدها يستقبل الموت بالزغاريد وآمال الحياة .

منذ أن استقبلني خليل في إحدى بيوت عائلته الذي أقيم فيه، وأنا أستيقظ على أمل خوض معركتي الأخيرة مع العدو الإسرائيلي، المعركة التي سأصبحُ بعدها شهيداً وذكرى ماضية. لكن هذا الأمل بدأ يتلاشى مع مرور الأيام والسنين. حلَّ محلَّه أملٌ آخر، هو أن أرى سلوان، شقيقة خليل الصغرى، تدخل عليَّ كل صباح ويداها تحملان طبق رغيف فلسطيني نتقاسمه معاً وتدعوني بعد ذلك إلى فنجان قهوة في حديقة بيت جدتها.

يبدأ يومي الفلسطيني بوجه سلوان، ثم بدوري في الحراسة عند حدود القطاع ... وإن انتهى اليوم دون اشتباك مع العدو ألجأ إلى مقهى أبو منصور حيث أشارك الغزِّيين أحاديثهم المسائية قبل أن أعود لوحدتي في ذلك البيت الفارغ من كل أملٍ في البقاء على قيدِ الحياة...

هذا الصباح تأخرتْ سلوان ... خرجتُ من البيت وأنا أفردُ ذراعيَّ مستقبلا شمس هذا الصباح الجميل بكل كسل. تمنيتُ مع نفسي أن يمرَّ هذا اليوم هادئا، جميلاً كما هو وألا ينغِّص علينا الجيش الإسرائيلي هدوءه.

تعلمتُ في غزة أن كل يوم جميل وهادئ قد يكون مشروعاً ليوم صاخب بأزيز الرصاص وهدير الدبابات والمدافع.

في مشهدٍ مضحك، قررتُ أن أتجول في الزقاق القريب من البيت وأنا أحملُ كوباً من القهوة الصباحية. كلما مرَّ بجانبي شخصٌ ما إلا وحدَّق في الفنجان الذي أحمله قبل أن يحدق فيّ، ولسان حاله يقول "لماذا يتجول هذا الأحمق الغريب بفنجان قهوة؟ هل بتنا شريطاً سينمائياً يستحلي الفرجة؟ "

كنتُ أتمشى مبتسماً، حتى سمعتُ صوت "جهاد" يناديني عند المرور بمحاذاة بيته:

- سيكون من الأجمل أن تجلسَ أنتَ وفنجانك على طاولتي نتبادل الحديث، هكذا ستوفر عليَّ عناء إعداد القهوة لك.

أجبتهُ ضاحكاً وأنا أقتربُ منه:

- أخبروني أنك بخيل ولا تُجيد إكرام ضيوفك، لكني أقدر صراحتك بالاعتراف بذلك دون خجل.

- قبلتَ الدعوة إذن؟

صاح وهو يعانقني بطريقته الرفاقية الجميلة.

- سأدفع ثمن اللقاء بك آلاف الأطنان من القهوة إن لزم الأمر يا رفيقي طارق. كيف حالك؟

- تمام، وكيف لا أكون بخير وأنا بين أهلي وأحبتي !

- أحسدك على روحك المعنوية العالية دائماً وجسامة تضحياتك

- وأي جسامة تراها وأي تضحيات يا جهاد؟

- مجرد مغادرة حياتك الخاصة بالمغرب وحضورك إلى فلسطين للدفاع عن أعلام العروبة هي تضحية كبيرة. القليل منا من يقبل أن يستبدل الدمار ومهالك الحرب بحياته الرغدة.

أجبتُه وأنا أضع فنجان القهوة على الطاولة كي أسمح لأناملي بإشعال أول سيجارة لي هذا الصباح:

- صدقني يا جهاد، حياتي في المغرب لم تكن بالنعيم الذي تتصوره. هناك آلام أكثر فظاعة من الحروب. هناك تعيش انكسارات وهزائم من نوعٍ آخر، لا أحد يتقاسمها معك. أما أنتم هنا، فانكساراتكم لها قضية وهزائمكم تتقاسمونها بينكم بكل تضامن.

- القضية راكمتْ الكثير من الهزائم يا طارق، حتى غدا كل تاريخنا سلسلة من الهزائم المتتابعة، نكبة تتبعها نكسة يتبعهما اجتياح واغتيال واستيطان و و و...

القضية تبرح مكانها، لقد أخفقنا وعلينا الاعتراف بذلك يا طارق

- لا أبداً، هم الذين أخفقوا في بناء دولة آمنة لهم. إنهم لا ينامون إلا على كوابيس أن نطردهم يوما إلى حيث قدموا... كما أتيتُ أنا هنا لأقاتل على أرض فلسطين سيأتي الملايين مثلي عاجلاً أم آجلاً ...

قاطعني بسخرية قائلاً:

- صرخت من قبلك جوليا بطرس "وين الملايين" لكن أحداً لم يسمعها. إخوتنا مش فاضيين يا زلمة ...مش فاضيين لفلسطين.

- عندما يستفيق العرب سيقلبون العالم بما فيه ولنا في التاريخ عبر، من طرد الصليبيين بعد مائتي سنة من الاحتلال ودحر الغزو المغولي... ؟

- شتان بين حاضرٍ نبكيه وماضٍ نبكي عليه يا رفيقي...

ظللنا نتناقش في القضية الفلسطينية لساعات طويلة حتى دخلت سلوان علينا مسرعة وهي تحمل في يدها الهاتف العسكري المحمول الذي يكون دائما بحوزة خليل.

- صباحُ الخير ...طارق، ليلى على الهاتف تريدُ مكالمتك...

- حسناً، أشكركِ

أتاني صوتُ ليلى الذي رفض رحيلي ليتبعَني إلى فلسطين... وهو دائما على استعداد أن يتبعني حيث رحلت:

- ألو...

- كيف حالك أيها الجندي؟، أرى أنك لم تمت بعد.

- أتنتظرين موتي إذن؟

- ومتى كانت الأرملة تنتظر موت زوجها!!

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أنَّك ستغادرني على أي حال. بالموت أو بالرحيل أو بالارتماء في أحضان فلسطين. المهم، قل لي كيف حالك؟

- على ما يرام، وأنتِ يا ليلى؟

- بغض النظر عن الفراغ الذي تركته، الحمد لله. لقد توصلتُ بروايتك على البريد الإلكتروني. تحفة يا طارق لقد أغرمتُ بها. لم أكن أظن أن بطل الرواية سيشبهك لهذه الدرجة!

- إنها روايتي الأولى يا ليلى، كان لابد لي أن أفرغ نفسي من نفسي كي أواصل الكتابة...

***

تركت جسدي المنهك ينزلق على ربوة صغيرة من الرمل، بعد أن تخلصتُ من حمولتي ومن تلك البندقية المعلولة التي أعطيتها لغسان بغرض إصلاحها. فلقد رفضتْ هذه الليلة أن تنجب ولو رصاصة واحدة من رحم عنقها الطويل. لعلَّها كانت متواطئة مع الموت ضدي هذه المرة، على أمل أن يثقب رصاص العدو صدري بعد أن أصبح أعزل من أي وسيلة دفاع. لقد كانت خيبتهما كبيرة بشكل يكفي لأتقاسمها معهم .

أخرجت من جيب سترتي مذياعا صغيرا أستجدي منه صوتا يسامرني هذه الليلة بعد أن أحسستُ أن مكالمة ليلى لي هذا الصباح تحتلُ فكري بكل استبداد. أدرتُ زر الأثير فإذا بأمواج الإذاعات تتساقط تباعا على مسامعي، أصوات قبرصية، عبرية، مصرية، فلسطينية ...انبعث صوت طربٍ أندلسي من الإذاعة العبرية سرعان ما ميزتُ صوت صاحبه. لقد كان "إميل زريحان" ذو الأصول المغربية والذي كنت قد بدأتُ أعشق أغانيه منذ أن دخلت أماليا في حياتي معيثةً فيها فوضى عارمة...

أسلمتُ مسامعي لأغنية "مكاشيكشيت" وشعرت بالنوم يتسلل إلى جفوني وأنا أتخيل الجنود الإسرائيليين يقاسمونني أغاني زريحان ...أخيرا أصبح لي قاسم مشترك معهم.

قبل حلول الفجر بدقائق عمَّت المعسكر جلبة كبيرة بعد أن أتتنا أوامر بالانسحاب لأن العدو يتقدم نحونا بكل فرقه المدرعة وآلياته العسكرية. ما إن وصلنا إلى حدود خان يونس حتى بدأت

مدفعية العدو تمطرنا بوابل نيرانها، وكأنها تتسابق معنا طوال الطريق الفاصلة بين المعسكر والمدينة.

بدأ دوي الانفجارات يملأ الأرجاء، أبنية تتهاوى وأعمدةُ دخان تتصاعد إلى السماء ... دُمرَ بيت جدة خليل حيث أشرب القهوة كل صباح مع سلوان. كانت المدينة خالية من كل أثر حياة. الكل اختبأ في ملاجئ تحت الأرض أو في أقبية المنازل، أما أنا وبقية المقاتلين فاحتمينا بخنادق حفرناها بمحيط المدينة استعدادا ليوم أسود قد يأتي وقد لا يأتي...

ربضنا بالخنادق ثلاث ساعات كاملة، دون حراك ودون الاتفاق على خطة عمل لرد هذا الهجوم. لكن ما إن أطلت علينا الدبابات الإسرائيلية برؤوسها وهي تقترب نحونا حتى أجمعنا على رد الهجوم برص الصفوف والرد بالقذائف الخفيفة التي بحوزتنا...

انسحب خليل وبعض الرفاق إلى داخل المدينة كي يطلبوا الدعم ويُأَمِّنوا خطوطنا الخلفية، فيما ظللتُ أنا وجهاد وإسماعيل وغسان والبقية نغني سمفونيتنا الجميلة، أزيز الرصاص ... كان الدخان الكثيف يحجب رؤية العدو لنا وتحديد أماكننا مما دفعنا إلى الخروج من الخنادق والتقدم صوبه لنوقع به ضربات مربكة.

عطلنا دبابتين وأصبنا الكثير من الجنود ليعدل العدو في الأخير بسرعة وجبن عن فكرة اقتحام المدينة ويعود أدراجه إلى معسكره حتى قبل أن يعود خليل وبقية المقاتلين...

كانت الشمس قد بدأت تميل إلى الغروب. استلم خليل ورفاقه مسؤولية تأمين محيط المدينة، في حين ذهبتُ أنا والبقية لنأخذ قسطاً من الراحة في بيوتنا. ما إن دخلتُ إلى البيت حتى ارتميتُ على السرير بكل ثقلي وأنا أتمتم "حتى هذه المرة... انتصرتُ على الموتِ مجدداً"

أحسستُ بحاجتي لحمامٍ ساخن أنعش به جسدي المنهك وأخففُ عني حدة توتر هذه الليلة الصاخبة.

نهضت بحماسة آخذاً معي علبة الصابون الإسرائيلي الذي كنتُ أقرأ ما كتبَ عليها وأنا في طريقي إلى الحمام. ضحكت ساخرا من أمتي التي تُقاتل أعداءها وتستعمل صابونهم... فتحتُ الصنبور الرشاش. قطرة، قطرتان، ثلاث، تدافعت قطرات المياه الباردة تسابق الساخنة على جسدي الذي سكن من الحراك واستسلم لدغدغتها المسكِّنة.

ألقيتُ بنظري لمجرى المياه، رأيتها وقد اتّخذت من الأحمر الطيني لونا فتذكرت وسخي. خطفتُ الصابون، والابتسامة الساخرة على شفتي، وأخذتُ أدعكُ أطراف جسدي وشعري. في قطاع غزة، عليك أن تنسى بسبب الحصار، بعض الكماليات والشامبو واحد منها.

عليك أن تتعلم غسل شعرك بالصابون فقط، كي لا يكون لك شامبو إسرائيلي إلى جانب الصابون الإسرائيلي، فيصبح كل حمَّامِكَ إسرائيليا !!

أدرت صنبور الماء لأغلقه. خيم صمتٌ ثقيل في الحمام. ظللتُ ساكنا بلا حركة أفكر في صوت الماء الذي كان مؤنساً للحظات وسط هذا الصمت الموجع في حياتي الفارغة. اختنقت كلماتي من هذا الحوار الداخلي، فدفعتُ جسدي العاري خارج الحمام كوني نسيتُ جلب المنشفة. ما إن خطوت ثلاث خطوات في الطُرقة الفاصلة بين الحمام وغرفة النوم حتى دَوتْ صرخة حادة في المنزل أفزعتني لدرجة أنني قفزتُ من شدة الرعب.

كانت سلوان صاحبة الصرخة، تقفُ أمامي مرتبكة وقد غزا جسدها الارتعاش حتى غدت غير قادرة على قول كلام يسهل فهمه ...

- كان .. كان الباب مفتوحا، فخلتك خرجتَ بالجوار. أردتُ أن أسألك إن كنتَ جائعاً كي أحضر لك العشاء؟ ...
- خلتني خارجاً بالجوار وتريدين معرفة إن كنتُ جائعاً بالمنزل؟ أترينَ هذا منطقيا؟

تذكرتُ أنني أقف أمامها عاريا وقد قتلها حياؤها وارتعاشها أمامي ...أسرعتُ إلى غرفة النوم باحثا عن ملابس أغطي بها هذا الجسد المبتل بقطرات الماء الساخن. دقائق فقط حتى كنتُ أمام سلوان بلباسي العسكري المزركش بألوان الطبيعة.

كانت سلوان قد هدأت واختفى تورد وجنتيها وبريق عينيها الممزوج بالرغبة.

- أراك تهمُّ بالخروج؟ لحدِّ علمي دورك في الحراسة انتهى الليلة.

- الليلة لم تنته وأنا أود شرب سيجارتي خارج المنزل فأنفاسي تكاد تكتم هنا ...

- أنت تُشبه أخي كثيرا. هو أيضا يضيق صدره وتكتم أنفاسه بسرعة. كلاكما خُلقَ للبرية.

رسمَت على شفتيها ابتسامة يملؤها الدلال واستسلمت أنا للصمت مفكراً فيما قالت، أكان مدحاً أم شتيمة ...على أيٍ هي لن تشتم أخاها.

- أتحب أن أرافقك يا طارق وأنت تشرب سجائرك؟

- لطالما أحببتُ رفقتك يا سلوان، هيا بنا...

ونحنُ نبتعد خطوات عن البيت وسط حقول القمح المجاورة، سألتُ سلوان :

- في كل مرة نتجول فيها ليلا، ألا تخشين من هؤلاء الرجال الغلاظ أن يروكِ معي...

- تقصد ملتحي حماس؟ أولئكَ الغلاظ الذين نصبوا أنفسهم حراس شرف نساء القطاع وسمعتهن، تركوا الأرض تغتصب من الإسرائيلي كل يوم، وكأن تحصين الفروج وإقامة الحدود أول همِّنا يا طارق...

- لا تخشي رجال حماس هذه الليلة. فبعد يوم طويل من القتال، فهم الآن منشغلون بين أحضان زوجاتهم تماما كالجنود الإسرائيليين الذين يرقصون مع صديقاتهم.

همستُ لنفسي مبتسما: ألا ترى أنك أنتَ أيضا تأخذ قسطك من مصاحبة أنثى جميلة في هذه الليلة المقمرة. لمحتْ سلوان ابتسامتي. وقفتْ لتنظر إلى عيني دون أن تسألني عن سبب تلك الابتسامة، ابتسمت هي الأخرى ومضينا في سيرنا.

كانت هذه أول مرة أُطيلُ فيها النظر إلى وجه سلوان متفحصاً ملامحها وأنوثتها المتدفقة بين قسماتها البيضاء..

في كل مرة نلتقي فيها كنتُ أجدُ نفسي أحرِّف كلمات درويش على لساني:

أحبُّكِ بيضاء،

يا امرأةً بيضاء

قلبكِ أبيض

نهدك أبيض،

خصركِ أبيض

أحبُّكِ بيضاء

كل شيءٍ في هذه الفتاة يغريني، منذ مجيئي إلى خان يونس. إلاَّ أن الإثارة والإغراء كانتا تمران بمحاذاتنا في كل لقاء محترمةً

المسافة المدروسة التي صنعها القدر بيننا ... تماماً كتلك المسافة التي تفصل كل فلسطيني عن حملِ جواز سفر فلسطيني.

في إحدى الليالي تمنيتُ لو ضممتُ سلوان بكل قوة ورغبة إلى صدري أكثر من كل الليالي التي جمعتنا معاً ونحن نتجول تحت عتمة ليل خان يونس .. حكت لي فيها عن قصة زيوس الإله الإغريقي الذي قام بإغواء حبيبته الحسناء" أوربا" بتحوله إلى ثور أبيض جميل اندسّ في قطيع والدها، وعندما كانت تقطف الورود مع رفيقاتها شاهدت الثور البالغ الجمال فقامت بمداعبته وجلست على ظهره، ليسرع زيوس راكضاً إلى مملكته حيث يخبرها بحقيقته وأنه يحبها بكل جنون الآلهة. ختمتْ سلوان القصة قائلةً:

- متى سيأتي شبيه زيوس عندي ويعانق صدري يا طارق؟

لم أجبها، أمعنتُ النظر في عينيها ثم تذكرتُ زهرة، تذكرتُ كلماتها، سمعتُ قلبي يصيح: لماذا أتذكر كل كلماتك الآن؟ .. كل تلك الحروف التي خرجت من ثغركِ ها هي تربط حول عنقي حبلاً من الموت يشنقني...

***

في الصباح، اجتمع كل الرفاق في مقر الجناح العسكري للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لتدارس وضعية قطاع غزة العسكرية وكيفية التصرف في الأيام القادمة. كان الكل منقسما بين ضرورة المواجهة العسكرية أو الهدنة مع العدو ... لكنَ خليل حسم النقاش الذي تطور في بعض جوانبه إلى صراع حاد بأن أمرنا بالهدنة وعدم التصرف بطيش في الأيام القادمة.

لا أعلمُ لمَ كان ينظر خليل في عيني جهاد بالذات عندما كان يأمرنا بعدم مواجهة الجيش الإسرائيلي. تخيلتُ أن هناك موضوعا ما أجهله. عند خروجي من المقر، سارع جهاد إلى الهمس في أذني:

- طارق، نحنُ لن نهادن الجيش الإسرائيلي، أنا ومجموعتي سنتحرك قريبا لمقاومة العدو على حدود المدينة.

- لكن...

- أنا لا أطلبُ منكَ مشورة ...اسمع، هذه الليلة سنعقد اجتماعاً سريا في بيتي، أنا أعرف أنكَ تشاطرنا الرأي لذلك فأنتَ مدعو.

قبل أن ينصرف جهاد مهرولا، التفتَ إليَّ مضيفاً:

- حذار أن يراك أحد هذا المساء.

سمعتُ حينها صوت البندقية يصرخ في عروق دمي لأضربَ بعرض الحائط أوامر خليل مقررا الانضمام إلى مجموعة جهاد،

ففي نهاية الأمر أنا لم آت هنا للسياحة أو الهدنة مع العدو بل أتيتُ لأعانق الرصاص.

في المساء، وأنا أقصدُ بيت جهاد، أطلتُ الطريق حتى أتأكد أن لا أحد يتعقب خطاي ... ومن زقاق إلى آخر حتى وجدتُ نفسي أنفثُ دخان السجائر عند باب منزل جهاد. طرقتُ الباب بتوجس بالغ وكأنَّ أناملي كانت منشغلة في التفكير محلَّ ذهني..

لحظات قليلة من الصمت تخللها مشي خطى قبل أن يفتح جهاد:

- تأخرتَ يا طارق..

- آسف يا جهاد ..كان لابد أن أتأكد أنْ لا أحد يتبعني كما طلبتْ.

- أحسنتَ إذن. تفضل الرفاق في انتظارك...

اجتزنا البهو الذي يفصل باب المنزل عن غرفة المكتب التي تضم المجتمعين الذين يتوقون مثلي إلى صوت الرصاص ومقاتلة العدو دون استكانة. ما إن فتح جهاد باب غرفة المكتب حتى استقبلتني غيمة كبيرة من دخان السجائر ورائحة التبغ التي تشي بلحظات تفكير عميق ونقاشات حادة.

- ها هو الرفيق طارق يا سادة، آخر القادمين.

لا أعرفُ لم كان توجسي يكبر حينها. توجس مختلط بمشاعر الذنب لعدم التزامي بأوامر خليل. قطعتُ توجسي قائلاً:

- مرحبا يا رفاق، يبدو أنه قد فاتني الكثير.

صاح جهاد مجيباً:

- اسمع يا زلمة ما فاتك"...." ...

حكى لي جهاد بكل تفصيل عما دار بين الرفاق من حديث حول الخطة العسكرية التي سيهاجمون بها الجيش الإسرائيلي وطريقة توزيع الأدوار.

- ما رأيك يا طارق؟

- يهمُّني أن أعرف رأي الرفاق وما أنا هنا إلاَّ لأكون معكم.

قفز إسماعيل بحماسة بالغة تقفزُ من شفتيه المزرقَّة من فرط التدخين:

- هجومنا على العدو سيكون خاطفاً لذلك تسليحنا سيكون هو الآخر خفيفاً، بنادق رشاشة على قنابل يدوية وقذائف أربجي. نضرب أهداف ثمينة محددة بشكل جيد ونعود بعدها بسرعة للقواعد...

صاح محمود، دون أن يمهلَ إسماعيل حتى إكمال كلامه، بصوت رزين وضارب في الثقل:

- لا أظنُّ يا رفاق أننا بهذا النوع من الأسلحة سنحقق إنجازاً كبيرا من هجومنا بعد غد على العدو الإسرائيلي.

صاح جهاد:

- ماذا تقصد يا محمود؟

- بأسلحة خفيفة لن نستطيع سوى قتل بعض الجنود وتدمير عربات عسكرية خفيفة، مع ضرورة التوغل أكثر في خطوط العدو ما يعني أن في الأمر مخاطرة، في التوغل كما في التراجع.

استمر النقاش على هذا المنوال، بينَ أخذٍ ورد حتى رسونا جميعا على خطة عسكرية واضحة، تبدأ أول فصولها غدا عند منتصف الليل في الحدود الشمالية للقطاع. افترقنا بعدها فرادى عائدين إلى منازلنا.

في طريق عودتي إلى البيت، لمحتُ سلوان تجلسُ على ركام صغير من بقايا حطام بعض البيوت. كانت غارقة في التفكير، نظرها مشتت نحو الأفق، حيث تربض دبابات الجيش الإسرائيلي في انتظار إشارة من أكبر ضباطهم لسحقنا إلى الأبد.

وأنا أقترب منها، التفتتْ لامحة قدومي.

- أهو موعد غرامي أتى بكِ إلى هذا الركام من الأحجار الميتة؟

- أليس مكاناً رومانسياً؟ ألستَ القائل إن في الخراب والأطلال نكهة رومانسية؟

أجبتُها ساخراً:

- بلى، الرومانسية حاضرة، حاضرة وبقوة...

جلستُ بتثاقل جنبها ورائحة الياسمين تلفني وتمنحني تذكرة سفر إلى غروب الشمس الشاعري في بحر غزة.

- أينَ هو ذلك الفارس الذي ضربتِ له موعداً على هذا الركام الرومانسي؟

- حضر متأخرا، وقد جلسَ لتوه بقربي.

- أنا؟ يسعدني أن أكون فارسكِ إذن. يا لحظي

سكتنا دقائق طويلة، تخللتها بعض النظرات المتبادلة بيننا دون كلمات. أنا وسلوان نعشقُ الصمت كثيراً. في مرات عديدة عند لقائنا في الصباح، كنا نشربُ القهوة معاً دون حديث. كنا نغرقُ في سواد القهوة وسواد عينَيْ بعضنا البعض ... لكنني قررتُ قطع صمتها هذه المرة، بعد أن بدت لي شاردة.

- فيم تفكرين؟

- لا أعلم بالتحديد. ربما في حياتنا التي تمضي بسرعة دون أن تنتظر أحلامنا ...أحلامنا يا طارق، أحلامنا البسيطة التي لا نعرفُ الطريق إليها.

- ما هو أكبر حلم لديكِ؟

التفتت إليَّ بلطف، رسمت شفتاها ابتسامة جميلة وقالت:

- لو قلتُ لك ستستغرب. نحنُ في فلسطين يا طارق نحلم بأن يكون لنا بيت. بيت نشعر أنه لن يُسرق منا في يوم ما. أصعبُ شيء هو أن تبني بيتاً لك، تجعله موطنا وعشاً لعائلتك، تنسجُ فيه وحوله الآمال والأحلام، تزرعُ أزهاراً وليموناً وزيتوناً بعتباته، دون أن تسرقُه منك جرافة أو يدمره صاروخٌ غادر فيصبح بيتُ أحلامك هو ذاته قبرك، وإن نجوت ستصبح مشرداً، لاجئاً دون بيت ودون أحلام. نحنُ شعبٌ لاجئ يا طارق، نحن شعب الخيام. حتى فوق أرضنا سنظل لاجئين.

أتعلم لِمَ أشتاقُ الآن؟.

- لِمَ؟.

- أشتاقُ لتلك الطاولة التي كنا نتقاسم عليها فنجان قهوة الصباح وأزهار الحديقة تعزف لنا أنغاماً من رائحة رحيقها في بيت جدتي. عندما دمر البيت بالأمس ذهبتُ أبحث إن كانت لازالت سليمة، لكنني وجدتها محترقة وأشلاء فناجين القهوة حولها ...حتى فناجين قهوتنا كسِّرت يا طارق.

- سنصنعُ طاولة جديدة يا سلوان ونشرب فوقها الآلاف من فناجين القهوة، سنبني بيتاً جديدا وبعده بيوتاً أخرى، لن نسمح للدمار أن يوقف قصصنا الجميلة أو يمحو أحلامنا.

- لا تقل كلاما لا تُؤمن به يا طارق. أنا أعرفك حزينا أكثر مني ويتملكك الضياع بوحشية لدرجة أنك تهرب من كل شيء إلى الموت والعدم. أراهن أن الجميع الآن ينسجُ الأمل في بناء بيوت جديدة وأنتَ تستعد للموت وللحرب غداً.

خيَّم الصمت من جديد علينا بعد أن عجزتُ عن إيجاد كلمات أجيب بها سلوان.

كانت سلوان تقرأ في عيني، ولعلها تعلم بما سنقوم به غداً أنا وجهاد وبقية الرفاق. ربما كان ذلك هو سبب حزنها وجلوسها هنا ... ربما.

- أتعلمُ لماذا بقيتُ بلا زواج وليست لدي النيةُ في إنجاب أطفال يربطونني بهذه الأرض التي يزورها الخراب كل يوم...؟

لم أسألها، ظللتُ أنظر إلى عينيها الجميلتين. كانت نظراتي كافية لتفهمَ سلوان أنني أريد أن أعرفَ بشغف سبب عدم زواجها.

فاستتبعتْ قائلة:

- في كل مرة أحبُّ فيها رجلاً ... يرحل. أولهم رحلَ في الحرب، كان الاستشهاد من أجل فلسطين بالنسبة له أغلى من الحب. والثاني رحل بكل بساطة، لا أدري إلى أي بلد بالتحديد، لكن ألم الحرب ومعاناة اللاجئ والدراما الفلسطينية جعلتهُ يهرب من كل شيء. من وطنه وقضيته وحبِّهِ كذلك.

سكتتْ لحظة قصيرة ثم أردفت وهي تنظر للجهة المعاكسة لي هذه المرة.

- أنتَ أيضا معلَّقٌ بين الاثنين، الموت أو الهروب. لا أمل في بقائك ولا أمل لفتاة في حبك.

أجبتُها مكمِّلاً:

- ولا أمل لي في تحقيق حلمٍ ما ... فلا أحلام تُنجز بين الموت والهروب.

التفتتْ إليَّ بسرعة قائلةً:

- توقف إذن. على الأقل توقف عن البحث عن أحدهما، لا تبحث عن الموت أو لا تبحث عن الهروب.

نهضت سلوان لتقفَ أمامي كشجرة زيتون فلسطينية رَمت ظلالها على رأسي.

نظرتْ إلي بكل عطف ثم مدَّت يديها لتنفض أثر التراب عن خصرها. قالت وهي تغادر:

- أياً كان ما ستقوم به غدا، تذكر أن فنجان قهوتي ينتظر فنجان قهوتك على الطاولة التي سنصنعها معاً من جديد. عِمتَ مساءً.

- عمتِ مساءً.

***

في هذه الليلة التي افتتحها الرصاص وسيسدل ستارها الموت المنتشر بين ثناياها لا ينقصني سوى ابتسامتكِ ... والسجائر التي أشعلتها باسمكِ. ولأعوض اشتياقي .. ها أنا أشعلُ سيجارة باسمك .. يديَّ تحملان بندقية وقلبي يحمل رصاصاتك وشفتاي تنتشيان بدخانك..

التقينا جميعاً كما اتفقنا في منتصف الليل عند الحدود الشمالية للمدينة. كانت الحماسة ومشاعر الاندفاع تقفز كشعاع أبيض من عيون الرفاق دون أي ارتباك أو توتر من مواجهة الموت الحقيقي في مواقفَ كهذه..

سبقتنا المجموعة الأولى بقيادة محمود، متسللةً لاتخاذ مواقع متقدمة قرب معسكر العدو، بينما ظللتُ أنا رفقة مجموعتي تحت قيادة جهاد في انتظار اشتباك المجموعة الأولى مع العدو، على أن نتسلل بعد ذلك من أي ثغرة تتشكل على مستوى خطوطه.

بسرعة غير متوقعة، رصد الجيش الإسرائيلي تحركاتنا بالقرب من معسكره فانطلقت رصاصات خفيفة متقطعة من الجانبين ليستتبعها سيلٌ متواصل من الرصاص والقذائف..

صاح جهاد بصوتٍ هيستيري:

- يا رفاق، استعدوا .. أفراد المجموعة الثالثة اتخذوا مواقعكم لتغطية توغل المجموعة الثانية عند الإشارة.

أمسكتُ بندقيتي بكلتا يديَّ. التفتُّ لأجد كل الرفاق يعانقون بندقياتهم بكل حماسة. ابتسمتُ وأنا أفكر في هؤلاء الإسرائيليين التعساء الذين اختاروا خصما عنيدا كالفلسطينيين ..

تقدم جهاد، منحني الظهر يميناً مشيرا لنا بالتقدم، في الوقت الذي تراجعت فيه المجموعة الثالثة للخلف لدك صفوف العدو بالمدفعية المحمولة.

كان صوت الرصاص يتسيَّد المكان دون منازع. وكلما تقدمت مع رفاقي في المجموعة نحو العدو، شعرت بالرصاص يمر بمحاذاة أجسادنا .. التفتُّ كي أطمئن لعدم إصابة رفاقي بأي أذى. ما هي إلا لحظات حتى وجدنا أنفسنا وقد طوقنا معسكر العدو من كل ناحية، وبدأت المعركة الحقيقية ..

شعور العدو بأنه محاصر من طرف المقاتلين دفعه إلى الدفاع بشراسة عن مواقعه بكل الأسلحة الخفيفة والثقيلة التي في حوزته.

استمر القتال ساعات طويلة .. لمحنا خلالها آليات العدو تحترق وفوضى عارمة في خطوطه .. منبئة بسقوط عدة قتلى..

في كل لحظة تمر، كنتُ أشعر بحماسة تختلط بمشاعر السعادة تنتشر في مجرى دمي وأنا ألحظُ بدايات نصر مدوٍّ في معركتنا الصغيرة هذه ضد العدو .. شعرتُ بنفس السعادة تعمُّ مجموعات رفاقنا من خلال صوت رصاصهم المتواصل دون كلل منذ

ساعات ودون أي تراجع أو تشتت في صفوفنا. سعادة قطعها صوت قذائف الهاون التي بدأت تطلقُ نحونا..

كانت مفاجأتنا كبيرة، أيقنا حينها أن معسكر العدو استنجد بوحدات دعم أو حتى بسلاح الجو ... أصوات متقطعة بدأت تصلُ أذني حينها:

- تراجعوا يا رفاق .. تراجعوا، كثافة قذائف الهاون ستسقطُ منا الكثير.

شعرتُ بلحظة ارتباك، كيف ننسحب ونحنُ على مقربة من إبادة كتيبة كاملة للعدو .. ليأتني صوتُ جهاد مقاطعا ارتباكي:

- طارق ماذا تنتظر ؟ ..لننسحب هيا

- كيفَ ننسحب هكذا؟، اتصل بالمجموعة الثالثة لتغطية انسحابنا.

صاح بصوتٍ هيستيري:

- مراكز إطلاق الهاون تطلق علينا القذائف من داخل الأراضي المحتلة يا زلمة. كيفَ سنغطي الانسحاب؟ ..هيا انسحب..

- تباً..

أفرغتُ رصاص بندقيتي بكل فوضى تجاه أجساد العدو في آخر محاولة لقتالهم. تركتُ بعدها جسدي يزحف بقدميَّ ويديَّ نحو

خطوطنا الخلفية ..وأنا أتراجع، لم ألمح أحداً من رفاقي. كان فقط صوتُ الرصاص الكثيف وصفير قذائف الهاون ما يصلُ أذني .. قبل أن تسقط منفجرة بعيدة عني ..

ظللتُ طيلة زحفي أصيحُ باسم جهاد، إسماعيل ومحمود ومنصور ..دون أن يصلني رد.

ملأني شعور قاتل بأنني تُركتُ وحيداً، لكن الأمل في العودة سالماً أنا والرفاق كان يكبر في داخلي مع طلوع أول خيوط الشمس وتقدمي في الزحف نحو حدود المدينة..

فجأةً سمعتُ صفيراً حاداً لقذيفة هاون تقترب مني، قفزتُ بسرعة مهرولاً متفادياً سقوط القذيفة، فإذا بقوة رهيبة تدفع جسدي بوحشية عشرات الأمتار إلى الأمام، ليرتطم بكل عنف بكتل الرمل المنتشرة بالمكان. أحسستُ برجة مؤلمة في رأسي وعظامي وكأنها دُكَّتْ بالأرض، ثم أغمضتُ عينيّ لأجد نفسي وسط سواد حالك يعزلني عن الحدث والمكان.

بعد دقائق قليلة، فتحت عيني بتثاقل شديد وأنا ممدد على رمل التصق بجسدي ممزوجا بسائل أحمر لزج أدركتُ أنه دم !! ماذا حدث؟ من أين جاء هذا الدم؟ ..

جلت بالنظر من حولي محرِّكا فقط عيني بعد أن عجزت عن رفع رأسي وتحريك جسدي. دخان أسود غامق كثيف يتصاعد من آليات عسكرية، أصوات صراخ وأنين وألم. زخَّات متقاطعة

من الرصاص تعبر من فوقي وأكاد ألمحها، رائحة الدماء وأشلاء بشرية هنا وهناك...

ما أن حاولت أن أتذكر أين أنا وماذا حدث حتى ظهرت وجوه فوق رأسي. وجوه مألوفة تنظر إليَّ باندهاش ممزوج بالهلع. لم أكن أسمع ما تقوله شفاههم التي كانت تتحرك بارتباك، لم أسمعهم، لم أتجاوب. رأيتهم يحملونني مهرولين. يحملون جسدي الذي لم أعد أشعر به..

ماذا حلَّ بجسدي؟ ما به مخدر هكذا؟ لم أدرك حينها سوى أنني محمول على الأكتاف والسماء تتراقص فوق ناظري حتى غبتُ في سباتٍ عميق ...

***

سمعتُ صوت خليل بعيدا في أذنيَّ:

- حمداً لله على سلامتك يا بطل.
- خليل؟ ... ماذا حدث؟ لِمَ نحنُ في هذه الخيمة؟ ماذا جرى لي؟ لماذا كل هذه الضمادات على جسدي؟ أجبني ... ما بك صامت؟

يطمئنني خليل بإجابة تخفي الحقيقة كما الحزن:

- لا شيء، لا شيء. هوّنِ عليك، سأجيبك ولكن اهدأ أولاً

أجبتُ بلهفة وعصبية:

- أجبني وسأهدأ...
- حسناً، ما هو آخر شيء تتذكره الآن؟
- إصابتي بشظايا قذيفة، كان الجيش الإسرائيلي يرمينا بمدفعيته ...بعدها لا أذكر شيئاً.
- بعدها أُغميَ عليك وحملك الرفاق إلى المدينة. مرَّ على غيبوبتك أسبوع كامل. أسبوع كان كافياً ليدمر الإسرائيليون المدينة ...لم يبقوا فيها حجراً ولا شجرا. وكما ترى نحنُ الآن نجلس في الخيام والبرك بعد أن هُدمت بيوتنا.
- لماذا دمروا المدينة؟

رسمَ خليل ابتسامة ساخرة على شفتيه، ووجه لي كلمات أحسستُ فيها بعتابٍ بالغ:

- البركة فيكم، أنتَ ومجموعتك السِّرية. عمليتكم الأخيرة كانت نتيجتها قتل إحدى عشر جندياً إسرائيليا والمقابل كان تدمير كل خان يونس.

تملَّكني حزنٌ كبير حينها، لم تخفيه إلا الآلام التي كانت تسري في جسدي.

كُسرَ ذراعي الأيمن وأُصبتُ بجراحٍ بليغة كانت تخفي طلاسمها الضمادات البيضاء والصفراء ...لا أعرفُ كيف سقطتْ صورة سلوان في مخيلتي لأسأل خليل عن أهله:

- وأهلكَ يا خليل، كيف حالهم؟

- الحمد لله، مرَّت سليمة على أهلي. لكن الموت سرق الكثير من أحبابنا

- من؟...!

- استرح الآن، أنتَ في حاجة إلى الراحة...

- خليل ...أجبني من فضلك!

- القائمة طويلة لن تتحملها .. وأنا لم ولن أتحمل إحصاء قائمة شهدائنا.

خرج خليل دون أن يجيبني بعد أن رمقني بنظرة شفقة ولوم واضح وكأنه يحمِّلنا مسؤولية كل ما جرى. هل أخطأنا حقاً؟ أكان علينا أن نهادن العدو كي نشتري السلام والأمن لأهلنا؟

وماذا عن القضية؟ أننسى قضية فلسطين من أجل السلام والأمن؟...

مرَّت ساعات قليلة فقط حتى بدأ الرفاق والأهل يدخلون الخيمة التي أرقد فيها للاطمئنان عليَّ بعد أن علموا بخبر استيقاظي من الغيبوبة. كانت سلوان أول الوافدين، ابتسامتها ووجهها الأبيض الجميل كانا خير مخدر لألمي الصارخ. أحسستُ لأول مرة أن سلوان تعشقني بجنون عندما لمحتُ عينيها ترقرق فرحاً باسترجاعي لوعيي...

زارني كل أهل خليل والرفاق الذين أصاحبهم لكنني لم ألمح جهاد؟ ... أينَ هو جهاد؟ سألتُ كل من حولي أينَ جهاد لكن الصمت كان جوابهم الوحيد.

كلما نظرتُ إلى عيون الواقفين قربي إلا وأخفضوا بصرهم بكل ألم وحسرة. استُشهدَ جهاد. الجملة الوحيدة التي أتتني وسط هذا الحفل من الصمت والألم. لم أدْرِ من أجابني حينها لكن تلك الإجابة كانت كفيلة لوحدها بأن تغوص بي في عالم اللاإدراك واللاشعور.

شعور واحد يجتاحنا حينما نفقد شخصا كجهاد :الفراغ، وكأن العالم بدونه لا يساوي شيئا سوى الفراغ. لا الألم يكفي حينها ولا الحزن ...الفراغ وحده يأتي مع غياب من نحب. استُشهدَ جهاد، دفع حياته ثمناً كي لا تموت القضية، كي لا تسافر في متاهات السلام والهدنة. شخصٌ مليء بالغضب والثورة كجهاد لا يمكن إلا أن يموت بلغة البنادق والمدافع ...

لم يسترجع الرفاق جثمان جهاد. لقد رفض القدر أن يمنحه قبراً، استكثر عليه متراً وسبعين سنتمتراً من التراب ليجعله مدفونا في العدم المطلق، تماماً كما هي قضية فلسطين.

***

أسبوعان ...ثلاثة أسابيع مرت وسط مستنقعات الحزن والموت المخيم فوق رؤوسنا، تُمطرنا به طائرات الجيش الإسرائيلي بين الفينة والأخرى. كنا في أواخر مارس بعد أن بدأتُ أسترجع عافيتي...

خرجتُ من الخيمة إلى الهواء الطلق، أتمشى وسط ركام الأحجار وبقايا البيوت التي تحولت إلى أطلال ثكلى تبكي شهداءها. شعرت بجسدي يتثاقل وكأنه ينوء بحمل ثقيل. أسلمت خاصرتي لحجر كبير من ركام المنازل المهدمة. فكرتُ حينها أنه أينما حللت يتبعني الخراب والأطلال، وكأن الموت يقول لي كل مرة، أنا حولك أينما ذهبت، سأغيّبُ رفاقك وأمزق آمالك، سأدمر كل البيوت التي سكنتها وكل الشوارع التي تعرف خطاك. سأظل أذكركَ أنني موجود دائما لكنني لن أقبض روحك. سألعبُ معك دائما لعبةَ الوجود والعدم دون أن يهزِم أحدنا الآخر.

قطع صوت الصبية بجانبي صوت صدى الكلمات بداخلي واستغربتُ كيف استطاعوا اللعب والركض بحيوية ومرح عارم وبيوت أهلهم هدمت عن بكرة أبيها!! ، تمنيت حينها لو كنت قد غادرت هذه الحياة وأنا طفل لم يعرف سوى أحضان والديه والمرح مع أقرانه. لن يملك الله عليَّ، حينها، حجة ليلقي بي في جهنم، فأدخل الجنة شابا خالدا فيها.

رفعتُ بصري لألمح خليل قادماً نحوي بخطى سريعة. لم أتبادل الحديث مع خليل منذ ثلاثة أيام، وكأنه يريد أن يقول لي إنه غاضب من كل ما جرى. شعرتُ بالخجل من نفسي بعد كل ما حصل، فأنا الآن السبب في كل هذا الكم من الدمار وفي تضاعف لائحة الشهداء. أشعر أنني مذنبٌ حقاً وأن جهاد قد أراح ضميره من تعب المسؤولية باستشهاده ...

وقف أمامي خليل وهو يحمل هاتفه العسكري بيده:

- لا أظن أنها فكرة جيدة أن تشمَّ الهواء الطلق في مكان يرقصُ فيه الخراب والدمار بكل نشوة.
- نحنُ نحملُ في قلوبنا يا خليل كما كبيراً من الخراب والفوضى، لذلك لن نحس بالفرق عندما نكون بمكان بهيج خلاب أو في ساحة خراب.
- أمسك.
- ماذا هناك...؟
- صديقتكَ ليلى على الهاتف...

ليلى .. ليلى .. ليلى، تلك الفتاة التي تسقي بدموعها الدمار والخراب المعشش في قلبي لتُنبتَ من جوفه وروداً حمراء تحيلُ الأمكنة الشاحبة والمظلمة إلى ربوة نعيم وقطعة من الجنة. كم اشتقتُ لهذه الفتاة ولحُقن الحب التي تعطيني إياها كل صباح على مقهى "ساتيامار" كي أواصل أيامي دون الشعور بالوحدة واليأس.

- الله ينعل حسَّك الخايب توحشتك يا طارق ...تركتني كاليتيمة في هذه البلاد، أعيش على كوابيس استشهادك وأحلام رجوعك. من أين لك كل هذه القسوة؟

غزا صوت ليلى مسامعي مع سيل جارف من العاطفة والحنان، ليذكرني بأن هناك من ينتظر عودتي وأن هناك من أكون له كل أسباب سعادته. أجبتُ ليلى ومشروع دمعة في عيني:

- أنا كذلك اشتقت إليك يا عزيزتي ليلى ..

- لا أظن

- صدقيني، هذه المرة أشتاق لكِ أكثر

- لذلك لا تسأل عني يا منافق!!

- كانت ظروفي صعبة يا ليلى، وأنت تعلمين أن الاتصال الهاتفي من غزة ليس بالأمر السهل ...كيف هي أحوالك؟

- كما تركتني يا طارق، أوزِّع وقتي بين الجريدة وعملي مع أبي في المطبعة. تركتَ فراغا قاتلا في حياتي يا طارق. أتعلم ؟، أشرب كل يوم كأس الشاي المنعنع في الأوداية ثم أقضي الليل في شقتك، كأني أجتر ذكرياتي معك وأجمل لحظات عمري إلى جانبك كي أحيا...

- أتحولتُ إلى ماضٍ ومجرد ذكرى بهذه السرعة يا ليلى؟!

- أبداً .. أبداً، أنت من يحاول جاهدا أن يجعل نفسه ذكرى للجميع، أنت من يحاول بكل لهفة طي صفحات كتابه وقتل كل الشخصيات التي تعيش فيه. طارق، ليس من البطولة أن تدفع صدرك للموت بشجاعة ليزفَّك الرصاص إلى مقابر الشهداء. البطولة أن تدفعه إلى قلب يحبُّك لتحتضنه لأنك كل ما تبقى له...

صمتُّ من شدَّة تأثري بكلام ليلى، وأحسست أنني قاسٍ مع هذه الفتاة التي أعطتني كل شيء، حتى حياتها وانتظارها، بينما أنا لم أعطها إلا الهَجر والذكريات التي تقتاتُ عليها عندما تجوع اشتياقا إليَّ.

- ما بك صامت يا طارق؟ ... أتبخل عليَّ حتى بصوتك بعد أن تركتني هنا لشبح ظلك الذي لا يغيب عندما تغيب الشمس والضوء...

- أتريدينني أن أعود يا ليلى؟

- أريدك أن تعود نهائيا إليّ، ألا تفكر مطلقا في الرحيل، أن تنسى أن بندقيتك هي حلمك الوحيد الذي يعرف النجاح، أن

الرصاص هو سلاحك الوحيد للدفاع عن مبادئك وأحلامك... عدوك الأول يا طارق ليس هو عدو فلسطين والعرب، عدوك الأول هو الرحيل. يجب أن تتغلب على رغبة الرحيل التي تعشش بداخلك. نحن جميعا نعيش على أنقاض أحلام لا تعرف الواقع، نعيش في وطن لا تربطنا به إلا جوازات السفر ... أتظن أننا نكترث لمن يحكم البلاد؟، ومن يرأس الحكومة والبرلمان؟، أو من يدرب المنتخب الوطني؟، من يتزوج اليوم أو يموت في الغد؟ لا يهمني إلا أنت يا طارق ...ألا أستحقُ أن تعود من أجلي؟!

- سأعود يا ليلى .. سأعود من أجلك.

انتهى حديثنا بإيقاع أنفاسي المتقطعة بين شهيق وزفير، وعينيّ اللتين أمطرتا دموعاً رغم الغيوم السوداء التي رابطت على سمائها لأسابيع طويلة.

بأنامــلِ إلــهةٍ، دوختْ أوتــــــارَ القيثــــارة
تسرقُ من علبةِ سجائري، آخر سيجارة..
تحرقُ معها نظراتي وهمساتي .. بولاَّعة جبـــارة
تنثرُ دخاناً .. يعتقلُ أنفاسي السَّـكــــــــارى
بعطرها، تسْكَـرُ وتمزَّقُ بكل مــــــرارة
بيني وبينها، طاولةُ عشقٍ،
فنجانا قهــوةٍ وأنوثة مثـــــارة
أنتِ يا صديقةَ السيجارة..
متى تسرقينَ منّي أول سيجارة ؟
كي ألتحفَ ترانيم جسدكِ الملتهبِ شـــــرارة

أسكبُ من عينيكِ، فنجانَ قهوتي .. عصارةً عصارة
تمطرُ رموشكِ لي قطعتي سكرٍ
والثالثة قبلةً من شفتيكِ العـــــذارى
تسألينني، متى أرتدُّ عن دينِكِ
أنـــــا ؟!!
أأرتدُّ؟!!
وبم ترجمينني عند ردَّتـــي؟
بنهـــديكِ أم بالحجارة ؟
تُعـيدينَ سؤالي .. ثملةً بدخانِ السيجارة
وما الفرقُ ؟ .. إن كانَ لا ينفعُ معهما في الموتِ شطارة ؟
أصيحُ..
بنهديكِ أموتُ شــهـيداً
بعد أن أبني بينَ حلمتيهما .. تاريخاً وحضارة.

جاءت ليلى لتخرجني من الضياع وآهات الحياة العبثية. مسحتُ دموع عيني والتفتُّ لأجد خليل وهو لا يزال واقفاً إلى جانبي منذ أن أتاني بالهاتف..

لمحني بعينٍ يملؤها العطف والشفقة ثم قال:

- أتعلم؟ ..أنتَ غني يا طارق. تملكُ ثروة كبيرة لكنك لا تنتبه لما تملكه أو لا تريد.

أن توجد فتاة تحبُّك بكل هذا الجنون الذي أعرفه في ليلى، تلك أعظم ثروة يمكن لرجل أن يملكها. انظر كم سنة أعرفك الآن ..اثنا عشر سنة. كل أحلامك في وطنٍ معافى يشبهك فشلت، ناضلتْ، سُجنت من أجل أحلامك، عُذِّبت، حملتَ البندقية هربا إلى فلسطين بحثاً عن الموت كي ترحل إلى الأبد. الحب وحده سيشفيك يا طارق، وطنك ليس هنا، وطنك ليست هي أحلامك التي فشلت، وطنك هو القلب الذي يحبك وليس الموت والرحيل ..

- أتظن يا خليل أنني أتيتُ إلى فلسطين فقط بحثا عن الموت وهربا من هذه الدنيا الكئيبة؟ ..

وقفت مبتعدا عن كومة الأحجار التي كنتُ أجلس فوقها وكأن هماً عميقا دفعني عنها. نظرت إلى عيني خليل لعلها تُقرؤني ما يدور في باله، ثم واصلتُ حديثي :

- أنت مخطئ يا خليل ...أنا أتيتُ إلى فلسطين لأنها آخر قضية لم أخسرها. أتيتُ إلى هنا كي أنتصر لنفسي التي هُزمت في كل معارك الحياة، كي أغادر هذه الدنيا وأنا مدافع عن مبادئي: فلسطين والوحدة العربية. فلسطين هي دائما بوصلة القوميين العرب. أنتَ يا خليل تصارع الموت لتبقى أطول وقت ممكن جنب زوجتك وأبنائك، أما أنا فأصارع الموت ليدفنني في هذه الأرض العطرة. أتعرف لماذا؟ ... لأنني أشجع من محمود درويش وأعرف أنني لن أصير يوما ما

أريد... سأعود يا خليل. سأعود ...ولكن كن متأكدا أن قبري يوجد هنا في فلسطين.

***

وقفت سلوان خلف الشاحنة تنتظر أن أدلفَ إليها بعد توديعي لخليل ولباقي الرفاق والأحبة. وقفتْ بثوبها الفلسطيني المطرز بالعقيق وقد غرق خداها في دموعها الصامتة التي لم تقاوم قانون الجاذبية متساقطة على صدرها بإيقاع منضبط.

ها هي فلسطين تودِّعني بخيرة جنودها البواسل: "سلوان"، ها هم الجنود يلبسون الزِّى النظامي: "ثوب سلوان"، ها هي المدفعية الفلسطينية تطلق توديعا لي اثنتي عشرة طلقة من "دموع سلوان".

- لم أشأ توديعك، الله وحده يعلم كم يصعب عليَّ ذلك. لكن رغبت في إعطائك شيئا ما، أعطني يدك اليمنى...

نقلتُ المحفظة العسكرية التي كنتُ أحملها على كتفي الأيمن إلى الكتف الأيسر حتى يتسنى لي مدُّ يدي اليمنى لسلوان بيسر. أمسكت يدي بيمناها المرتعشة والباردة كالصقيع ووضعت بيدها اليسرى سلسلة خَمَّنتُ أنها قلادة بعد تحسُّسي لها.

- أتهدينني قلادة تحمل مفتاح بيت فلسطيني كما يفعل كل الفلسطينيين عند توديعهم لأحبائهم؟...
- بيت واحد لا يكفيك ...أنتَ تسكنُ كل البيوت ولن تكفيك إلا كل أرضِ فلسطين.

فتحتُ يدي فإذا بالقلادة تحمل قطعة فضية تمثل خريطة فلسطين معلقة من حدودها الشمالية مع لبنان إلى السلسلة. رسمتُ ابتسامة على شفتيّ بعد أن عجزتُ عن النطق بكلمة واحدة في هذا الوداع الدرامي.

ارتبكت كل الحروف على لساني ولم أشعر يوما أنني غير قادر على النطق أكثر من هذه اللحظات. أي مشاعر هذه التي تجعل كل ذاك الكم الهائل من الحروف واللغات التي تعلمناها منذ الصغر ينتحر على رصيفها.

حركتُ شفتيّ علاهما تجيدان بكلمة فإذا بسلوان تخرسهما بأصبعها كقفل أغلقهما إلى الأبد.

- طوال هذه السنين تعلمتُ أن الصمت هو أعمق وأبلغ ما فيك، فلا تشوه ما يجول بخاطرك بكلمات تعصر شفتيكَ للنطق بها. أريد أن أبقى خليلة صمتك كما كنتُ أفعل في تلك الليالي، أريد أن أبقى عذراء بصمتك، أن تتذكرني في كل لحظة صمت تعيشها، أن يصير الصمت رديفا لاسم سلوان في قاموسك. علّق كلماتكَ إذن على صليب حنجرتك واصلبها فربما الدنيا بحاجة إلى مسيح ثانٍ مصلوب ...

طوقت عنقي بالقلادة، ليعمَّ صمتٌ ثقيل كسرتُه بقبلة خفيفة على رأسها الذي كانت تفوح منه رائحة الياسمين كعادته. يا الله كم سأشتاق لهذه الرائحة.

وددت لو أعانقُ سلوان ضاماً صدرها إلى صدري الذي سيفرغ من صحبتها بعد قليل، ليغدو يتيما من كل أسباب الحياة ...آه كم وددتُ ذلك. لكنني خجلتُ من خليل ومن بقية الواقفين خلفنا. خفتُ أن أحرج سلوان أمامهم.

تحركت قدماي بحماسة غريبة مبعدةً جسدي عن سلوان لتعلنَ لحظة الوداع التي طالت حد الوجع. رميتُ محفظتي الثقيلة خلف الشاحنة وكأني أرمي كل تلك الأيام التي عشتها طيلة ثلاث سنوات على هذه الأرض الطيبة، أرض الأنبياء والحب وأزيز الرصاص.

قبل أن أفتح الباب، ألقيت نظرةً أخيرة على سلوان وهي تبكي على كتف خليل الذي رفع يده اليسرى مودعا لي بشارة النصر. كرهت حينها مشاهد الوداع حيث يودعني البعض بالدموع والبعض الآخر بشارات النصر.

فتحتُ الباب الأيمن في مقدمة الشاحنة حيث جلستُ بالقرب من سائقها أبو زياد دون أن أنبس بكلمة. كل ما كان يعصرُ قلبي حينها هو الندم على عدم معانقة سلوان وضمها إلى ضلوعي التي ستشتاق لضلوعها.

انطلقت الشاحنة وسط الغبار الذي أحدثته عجلاتها وكأنه يدفعها لتبدأ مشوار العودة، الذي توقعتُ أنه لن يكون عندما وطئتْ قدماي خان يونس قبل ثلاث سنوات. لم أعلم حينها هل سأصل إلى المغرب حيث تنتظرني ليلى أم سيمنحني كَرَمُ الطائرات الإسرائيلية صاروخاً يقطعُ رحلة الذهاب والإياب بين الرحيل والعودة.

الرباط – القُطر المغربي

يوليو 2014

انتظروا الجزء الثاني لـهذه الرواية:

رواية "أنتِ أو لا وطن"

للتواصل مع الكاتب:

/Ecrivain.Mourad.EDDAFRI

mourad.courriel@gmail.com